

فتاة من الأقاليم

البرتو مورافيا

فتاة من الأقاليم

الفصل الأول

● منذ سنوات ، كانت تعيش فى إحدى مدن إيطاليا الوسطى أرملة فى أواسط العمر تدعى (جاشينتا فوريزى) ، وابنتها (جيا) . وكانت المدينة التى تقطناها ، من تلك المدن المعتمة ، التى تتطاول بأبراجها فوق ربوة عالية .. وكان يخترقها من أدناها إلى أقصاها شارع رئيسى يسمى (الكورسو) ، تنتصب فيه الكتدرائية وأجمل القصور ، وتنحدر منه إلى اليمين وإلى اليسار أزقة ضيقة ومتاهات من السلالم المتحدرة : وفى أحد هذه الأزقة المسمى (ألاباسيون) — وقد يرجع الاسم إلى التمثال القديم المنحوت فى زاوية أحد المبانى ، والذى يمثل صلب المسيح — كانت السيدتان (فوريزى) تشغلان الطابق الأعلى من منزل منهار ، خرب ، يعود طراز بنائه إلى عهد الإقطاع . وكانت المدينة — بوصفها مركز الإقليم — تستمد حياتها من وجود عدد كبير من الموظفين والضباط وأصحاب المهن الحرة فيها .. وكانت السيدتان فوريزى — لفقرهما الذى يشاركهما فيه الكثيرون ، تحاولان الإفادة من هؤلاء الأجانب ، فتؤجران أفضل حجرتين أو ثلاث من شقتهما ، تلك التى لا تطل على الزقاق بل تفتح على الحدائق المضيئة ، غير المعتنى بها ، التى تمتد وراء البيت ..

وكانت الأم فى نحو الخمسين ، قصيرة ، مكتنزة ، متواضعة الملبس ، منكسرة غير متعنتة فى عاداتها ، وإن كانت يداها الرقيقتان ،

البيضاوان ، الناعمتان ، وشعرها المحتفظ بسواده، والمصفف بعناية، يضفى عليها بعض أناقتها الجميلة فى الأيام الغابرة .. كما كان وجهها الذى احتفظت قسماته برقتها – رغم ترهل خفيف – وعلى الأخص عيناها الزرقاوان زرقة منطفئة هادئة ، واللتان كانتا تسطعان فى بعض الأحيان بنظـرة جريئة ضاحكة .. كلها تدعو إلى الظن بأنهـا « كانت » منـذ عشرين سنة جميلة ، مختلفة كل الاختلاف عما صارت إليه !

وكانت ترتدى الملابس الشائعة التى ترتديها ربات البيوت فى الأقاليم، متزرة سوداء أو رمادية، منسدلة إلى القدمين، وياقة عالية، وحول كتفيها قطعة وشاح تلتئم على الصدر، وما من شبهة للمساحيق على خديها .. لكن من يراها يحس أن مسحة خفيفة من الحمرة ، وثوباً أكثر أناقة ، يكفيان لتغيير مظهرها !

وكانت عاكفة على بيتها ، فإذا لم تكن مشغولة فى مطبخها أو فى أشغال إبرتها ، وضعت حول رقبتها فراء منتوف الشعر ، وعلى رأسها قبعة صغيرة سوداء ، وذهبت إلى الكنيسة . وهناك – وهى منزوية فى الظل ، خلف عمود ، وبغير حماس أو متعة – كانت تتلو فى خفوت ، بحركات شفتيها ، صلوات طويلة ، معقدة .. غير أنها لم تكن مع ذلك ربة البيت الكاملة ولا المتدينة المثلى ، بل كان يبدو أنها مذعنة لطراز من الحياة ليس هو طرازها . وكان بريق «الشقاوة»

لا يفتأ يعاود الظهور من حين إلى حين فى عينيها . ومن مجموع شخصيتها كان يشع طابع خبث خفيف ، لئيم !

* * *

● على أنه إذا كان مظهر الأم، وما لها من رقة فى الملامح وهيئة توحى بحرصها على الكتمان ، لم يكن ليثير الملاحظة ، فإن رؤية الإبنة كانت تكفى للتنبه إلى المفارقة بين حياة المرأتين المتواضعة الراهنة ، وماضيهما المجهول !

كانت (جيا) عاطلة من الجمال وخفة الروح ، لكن ملامحها الواضحة النبيلة كانت تفضح منبتاً غير سوقى ، وتضفى عليها فى بعض الأحيان نوعاً من الحسن العريق !.. كانت طويلة ، ممشوقة ، ذات أفخاذ طويلة نحيلة ، وصدر صغير – وإن كان عريضاً ككتفيها – وكان وجهها شديد النحول، شاحباً ، باستثناء الوجنتين، فهما دائماً أميل إلى الحمرة . أما عيناها فكبيرتان ، بطيئتا الحركة ، وجفناها مسترخيان يخفيان الحدقتين ، ويضفيان على نظرتها مسحة كبرياء حزينة مترفعة !.. وكان لها أنف معقوف ، وفم واسع مطبوع بطابع الازدراء ، وشعر مجعد ، أما لون بشرتها فكان رقيقاً شفافاً، وإن ظهرت فيه فى بعض الأحيان بقع حمراء .. وكان الشعر الخفيف الزغبى الذى ينتشر على ذراعيها وقفاها يعلن عن جسد «مشعر» ، مفعم بالنار !.. ولقد أخذت (جيا) من أمها الشيء القليل ، فيما عدا الأنف المعقوف .. أما من أبيها، فلا شيء على الإطلاق – إذا حكمنا،

على الأقل، بمقتضى الصورة الفوتوغرافية المعلقة على الجدار، والتى تظهر رجلا قصيراً، أقطش، ممتلئاً، لين العريكة .. وكان الأب تاجراً وأفلس، وقد مات بعد إفلاسه بقليل، تاركاً امرأة بلانقود، وابنته طفلة صغيرة .. ومهما يكن من شيء فإن (جيا) ، بنحولها وشحوبها وقامتها المشرعة، لم يكن فيها شيء من فتاة الأقاليم، بل كان من يراها يحسبها إحدى النساء «الأنيميات» - المصابات بفقر الدم - من عرائس المجتمع، ساكنات المدن، والموهوبات لحياتها .. اللاتى يقضين يومهن مسترخيات على أريكة، ولا يخرجن إلا فى ثوب السهرة! .. مخلوقات مصنوعات لحياة الليل، قصيرات العمر، لاحول لهن ولا قوة!

.. لكن هـذا المظهر، من بين كل المظاهر، كان أكثرها خداعاً! فما عرفت (جيا) قط غير ملابسها الفقيرة الداكنة، تضغطها حول قوامها كى تمنح جذعها المهزول قليلا من التجسيم .. أما حياتها التى تحياها فكانت أقصى ما يمكن تصوره من الرتابة والتزمت، حتى فى مدينة صغيرة، فى أطراف الأقاليم ..

* * *

● وكانت المرأتان، رغم فقرهما وما تؤجرانه من حجرات بيتهما، تتمتعان فى المدينة بقدر من الاعتبار - وإن كان، والحق يقال، قدراً غير وطيد ولا مضمون: كانتا معروفتين من الجميع، تستقبلان فى كل مكان .. وكان يقال فى مدحهما أنهما لا «تفرضان» نفسيهما،

وتعرفان كيف تلزمان مكانهما! .. وكانت أسباب هذا التقدير - الذى لا يظفر به من هم أغنى وأعز نفوذاً منهما - كثيرة ومتعددة، لكنها غير واضحة دائماً. ومن هذه الأسباب، بلا ريب، تواضعهما، وربما طابع الأصالة والامتياز، الذى كان يجعلهما تظهران كأنما هوت بهما الأيام من عز قديم .. مع أن أحداً فى الحقيقة لم يرهما فى درجة من السلم الاجتماعى أعلى من تلك التى تشغلانها! .. أما الحاسدون - ولكل الناس حاسدون، حتى أقلهم حظاً مما يحسد عليه - فكانوا يزعمون أنهم يعرفون سر ذلك الطابع العريق .. وكانت تقولاتهم قائمة كلها على أمر واحد: علاقة (جيا) بأسرة غنيـة فى الريف!

وكانت (جيا) بالفعل، تذهب فى كل صيف إلى ضيعة قريبة لقضاء العطلة فيها، وكانت الأسرة صاحبة الضيعة مكونة من الأب، وابن، وابنتين تقاربان (جيا) فى العمر. وقد كانت (جيا) طفلة عندما قادتها أمها عدة مرات إلى ذلك البيت، لقضاء فترات قصيرة لا تتجاوز الأيام .. لكن هـذه الزيارات البعيدة صارت ذكريات يبلغ من بعدها وانطماسها أن (جيا) نفسها كانت ترتاب فى أمرها، سيما وأن أمها لم تكن تشير إليها، أو تدعها تفهم سبب ترددها على ذلك البيت!

.. ثم صارت جيا بنتاً كبيرة، فعادت إلى ذلك البيت وحدها، لتقضى فيـه كل صيف شهرين على الأقل، وهكذا ارتبطت مع

ابنتى البيت بصداقة ثانوية تحولت شيئاً فشيئاً مع السنين ، إلى علاقة « تبعية » . كانت البنتان تخلعان عليها الفساتين التى لم تعودا ترتديانها وتكلفانها بالخدمات الدقيقة الصعبة التى لا يمكن طلبها من مربية .. وهكذا كانت ، بالنسبة لها ، لا صديقة بمعنى الكلمة ، وإنما شيئاً وسطاً بين الرفيقة والمربية . وفى مقابل هذا كانت تستمتع بميزة لها قدرها عندها : أن تجد نفسها على قدم المساواة ، على الأقل فى الظاهر ، مع جميع من يترددون على البيت ، وهم فى الغالب من جيران الريف ، مع نسائهم وأطفالهم .. وكان ذلك الريف عالماً شائخاً ، يجمع بين البساطة والغرور ، ويثير الرثاء والتقزز فى وقت واحد .. ولكن هذه الألقاب التى غدت بلا بريق ، وهذه الزينة المستوحاة من مقترحات صحف الأزياء الباريسية ، والمنفذة كيفما اتفق .. وهذه الأحاديث التى تشير إلى أمور كانت هى تجهلها .. كانت كلها بالنسبة لجيا ذات النشأة المتواضعة ، تبدو أشياء رائعة ومرغوبة ، ومليئة بخفاء السر وروعته !

أما سيد البيت فكان يجعل دائماً بينها وبينه مسافة لا تتجاوزها ، ويعاملها بطيبة عاطفية وأبوة تقليدية ، كما لو كان يعامل أختاً فى الرضاع لإحدى ابنتيه . وما من مرة واحدة ، فى كل هذه الأعوام ، سألها عن أنباء أمها . والشهران اللذان كانت جيا تقضيهما كل سنة فى تلك الضيعة كانا ، فى نظرها ، الحدث الرئيسى والتسلية الوحيدة فى حياتها !.. لكن الاعتياد والألفة كانا قد أضفيا عليها مظهر عدم

الاكتراث بذلك النعيم !.. فلم يكن يفوتها أن تجيب صديقاتها اللاتى كن يسألنها أين ستقضى الصيف ، بقولها : « كالمعتاد ، سأذهب إلى (لاشيناى) :: » .. وإذا سئلت عما تصنعه هناك ، أجابت فى فتور : « أوه ! إننا نحيا هناك حياة بسيطة جداً ، بل مملة ! » .

ولم تكن تلحظ ضحكات مكتومة تصدر من رفيقاتها الخبيثات اللاتى ما كن يلقين عليها هذه الأسئلة إلا ليرينها إذ تتخذ هيئتها المتعالية وعدم اكتراثها السأمان !.. فقد كان بها ، فى الواقع ، ميل طبيعى لايكبح إلى الترف ، وإلى غرور الحياة الاجتماعية :. وخجل من وضعها الحاضر ، ومن فقرها ، ليس أقل من ميلها الأول قوة وتأصلا فى طبيعتها !

وانسياقاً مع حلمها بتلك الفردوس التى كانت تعلم أنها منبوذة منه — وكم ودت أن تدخله — كانت كثيراً ماتمزج الحقيقة بأحلامها ، وتخلط ما تملك بما تتوق إليه ، والحاضر بالمستقبل .. وتخترع ببلاهة ، وهى مندفعة على منحدر نزوتها العنيفة الواهمة ، حكايات غير معقولة تسردها دون أن تطرف : فالملابس التى كانت تعطى لها كمنحة ، بعد استغناء صاحبتيها عنها ، كانت تتحول بقدرة قادر إلى ملابس تصنعها لها ، بأمر منها ، خياطة بارعة فى (فلورنسا) !.. أما أمها فسليلة بيت نبيل يمت بالقرابة إلى المرحومة زوجة رب تلك الأسرة التى تزورها فى عزبة (لاشيناى) ! وهى نفسها رفضت طلباً للزواج من شاب غنى جداً ، وله شهرته ! وفى الشتاء المقبل سوف

تكون فى روما ، تلبية لدعوة تلقتها من (مركيزة) !.. ومائة خرافة أخرى من وحى الغرور !

ومع أن (جيا) كانت بطبيعتها خجولا ، فقد كانت تمعن فى الجرأة وهى تردد أكاذيبها وترهاتها ، متحدية الاستهزاء والخزى ، أمام أشخاص يسعهم بسهولة أن يكذبوها ، ولكن هـذه الجرأة المثيرة الموجودة من كل سـند كانت تدهش هؤلاء الأشخاص وتسكتهم فى النهاية .. وربما جعلتهم يرتابون فى ذاكرتهم !

والواقع أنها ماكان ليسعها هى نفسها أن تقول كيف وصلت إلى الانسياق بهذا الشكل وراء تلك اللذة الشائنة ! .. لعل كذبتها الأولى كانت أدنى إلى الحقيقة مما تلاها من أكاذيب ، فدفعتها إلى المنحدر السيء الذى تمادت فيه بعد ذلك .. أو لعلها اعتقدت أنها تستطيع أن تخدع الآخرين كما اعتادت أن تخدع نفسها ، فما لبثت أن غدت معروفة بين أهل البلدة جميعاً ، وخاصة بين صديقاتها ، بوصفها كذابة مزمنة ، مضحكة ، ونادرة الجرأة ، وخارجة حقاً عن المألوف !.. كانت أولئك الصديقات يتعمدن تغذية قابليتها هذه بالأسئلة ، وبالطعم يلقينه لها ، وبالشباك ينصبنها لها .. فلقد كانت تسليتهن الكبرى أن يرينها تتخذ هيئة التعالى و « التفوق الاجتماعى » التى يعرفنها فيها :. وكجهاز يبدأ فى العمل عندما تدخل فيه قطعة نقود ، كانت تنطلق من فورها – فى ثقة رائعة – تسرد أكاذيبها الفادحة الضخامة !.. وكانت رؤيتها وهى تكذب لعبة ممتعة تزجى

بها صويحباتها الوقت ، على حد قولهن .. سيما وقد كان هناك نوع من الإتقـان المسرحى فى ذلك الولع التعس الذى أولعت به ، وفى الطريقة « الآلية » التى يعبر بها عن نفسه !.. وهكذا انتهت (جيا) التائهة فى أحلامها ، دون أن تلحظ ، إلى أن خلقت حولها جواً من السخرية القاسية ومن الازدراء المسلى !

ومن جهة أخرى ، كانت أمها صاحبة اليد الطولى فى دفعها إلى منحـدر ذلك الولع بالكذب المزهو بدلا من أن تكون أول من يمنعها ويحذرها !.. ذلك أن الأرملة (فوريزى) ، تحت مظهر من البساطة والتواضع ، كانت تخفى جنوناً معادلا لجنون ابنتها .. مع فارق وحيد، هو تجارب الأم القديمة التى اضطرتها إلى كبح المطامح التى لا تزال الابنة ، القليلة الخبرة ، تظهرها بشكل « مفتوح » .. ولو أن الأم كانت تكبت هـذه المطامح دون أن تتنازل مع ذلك عنها !.. وماكانت الصديقات الخبيثات اللائى يجعلن من (جيا) لعبتهن ، لينجحن فى إسقاط أمها فى الخدعة نفسها ، إذ كانت شديدة الحذر والخوف ، تتوهج فى نفسها ذكريات هزائمها القديمة .. وكما يرى السياسى المهزوم – الذى لم يستسلم – فى ابنه مدافعاً عن سمعته ، ومنتقماً لشخصه وعمله ، كانت مدام (فوريزى) تنظر إلى شطحات ابنتها نظرة عطف ، إن لم تكن نظرة تشجيع !

* * *

● وعندما كانت (جيا) تعود من الضيعة ، كانت الأم تنفق

شهراً كاملا فى حثها على سرد أضأل الوقائع التى جرت هناك ، وكان على (جيا) أن تروى لها أتفه ما قيل من كلام ، وتصف لها بالتفصيل الدقيق مظهر ومركز جميع الأشخاص الذين حظيت بمتعة القرب منهم ! .. وعنـدئذ ، كانت عيناها الزرقاوان اللتان أطفأت الأيام بريقهما تلمعان لهـذه « التقارير » ، وتستعيدان بريق الشباب الضاحك .. كانت تغــدو امرأة أخـرى .. وبأنصاف كلمات ، وبإيماءات من رأسها ، لم تكن تكف عن تأييد أحاديث ابنتها والتعليق عليهـا .. فإذا كان فى الأمر خيانة زوجية أو اشـتباك عاطفى بين أشخاص رأتهم جميعاً أو سمعت عنهم كلاماً ، تقبلت أمها أحاديث تلك الأقاويل بتهلل وفضول ، مع أنها ما كان ليفوتها أن تقسو فى حكمها على مثل هـذه الأخطاء لو أنها وقعت من أناس صـغار من جيرانها !.. وكانت كلماتها القليلة المحبذة تنم عن إيمانها بأن مثل هذا الخروج على العرف ، عنـد طبقة معينة من الناس ، شيء مسموح به !.. بل – أكثر من هذا – إن هــذا الخروج « واجب » ، إلى حد ما ، شأنه شأن حمل الحلى أو اقتناء سيارة !.. وكانت هــذه الصورة الوهمية ثابتة فى ذهن الأم ، تدق وتستعصى على العلاج ، أكثر مما هى بالنسبة للابنة التى لا تزال ساذجة وصريحة .. الصورة الوهمية لعالم فيه رجال نبلاء ونساء حسان وأغنياء تنعقد بينهم خيوط اشتباكات خفية ، ويعيشون فى مساكن مفعمة بالبذخ ، ويبعثرون ثروات حسب أهـواء نزواتهم .. وبالإجمال يمنحون أنفسهم كل

المسرات الممكنة خارج نطاق كل قاعدة خلقية ، وفى جهل بالواجبات الاجتماعية !.. وكان يتضح من كلام الأم أن تلك المسرات محرمة فى العادة على السواد الأكبر من الناس ، وعلى من كان مثلهما قـد هبط به الحال وصار من واجبه أن يعيش خاضعاً لقواعـد مستقرة وقاطعة فى تمشيها مع التقاليد .. وقد كانت هذه الأفكار ترجع إلى عهد الشباب الأول لمدام فوريزى ، إلى حقبة كانت هـذه الأفكار فيهـا منتشرة على نطاق عالمى ، بحيث تسيطر على العادات وتوحى بطراز كامل من الأدب .. وقد ظلت أم جيا ، وهى التى لم تتثقف أو تعرف شيئاً مما فى الكتب ، وفية لروح تلك الحقبة ، وفاءها القبعة التى بطل استعمالها ومع ذلك استمرت هى تضعها على رأسها كلما قصدت إلى الكنيسة ..

* * *

● وكانت (جيا) تستروح فى حنين أمها عزاء و « قوتاً » لمطامحها وأكاذيبها !.. فقد كان التوافق بينهما فى هــذا المضمار كاملا !.. وعنـدما كانتا تخوضان معاً فى تلك الأحاديث ، كانتا تنسيان أنهما تسكنان فى سطح منزل ، وتنسيان أثاثهما المتواضع ، والزقاق المعتم الذى تفتح عليه نافذتهما ، وسكان « البنسيون » النائمين فى الحجرات المتلاصقة ، وكل أوجه حيـاة الضيق التى تعيشانهـا .. وتنتقلان ، كما بسحر ساحر ، إلى العالم الخيالى الذى تحلمان به ، عالم رغباتهما الباطنة . وأحياناً كانت الأم تطلق تنهدة أسى ، كأنها تريد أن تقول

«آه ! عندما كنت فى شبابى .. » .. لكنها كانت دائماً تسيطر على نفسها ، وتسكت .. بعكس ابنتها (جيا) ، التى تجلس على الغطاء القطنى للسرير الحديدى الصغير ، وتمضى تتكلم بلا توقف ، وبتلك الحيوية الحارة وذلك الحماس المعهود فى ذوات المشاعر الساذجة !

... وترتفع أغنية خشنة من مخمور يمر تحت النافذة متسانداً على الحائط .. و (جيا) تتكلم .

وتموء قطط ويطارد بعضها بعضاً فى سلالم الزقاق ، و (جيا) تتكلم ..

ومن ناقوس الكاتدرائية ترن دقات انتصاف الليل ، ثقيلة وموحشة ، و (جيا) دائماً تتكلم !

وكانت الأم ، فى كل مساء تقريباً ، تنهض فى عذوبة ودون أن تقول شيئاً ، وتقف أمام المرآة المائلة ، وتأخذ فى حل تصفيفة شعرها المعقدة وهى تجاوب ابنتها ، وتضع دبابيسها ، واحداً بعد الآخر ، فوق الرخامة الرمادية التى تعلوها المرآة .. وعندما تصير فى قميصها ، كانت تقاطع ابنتها فى عز كلامها ، فى منتصف عبارة ، فتمنحها قبلة وتبعث بها إلى فراشها !.. عندئذ كانت (جيا) تهوى من حالق ، لكنها كانت تطيع وتمضى إلى غرفتها فى مرارة وخيبة رجاء ..

لكنها ، هناك ، وقد أطفىء مصباحها وانكمش جسدها النحيل المتوقد تحت الأغطية ، لم تكن تتأخر فى استرداد نفسها .. فإن هى إلا لحظة أخرى حتى تتوه مع الأحلام من جديد ، ثم تنام قريرة العين !

الفصل الثانى

● وحدث ، ذات صيف ، أن تنبه ابن سيد العزبة فجأة إلى وجود (جيا) ، كما يحدث أن يكتشف المرء بعد طول السكن فى غرفة ، لون ورق الجدران .. أو رسم الأرضية !

.. كانت علاقته بصديقة أختيه ، إلى ذلك الحين ، بريئة من كل خاطر دفين ، على نحو ما كانت فى صغرهم حين كانوا جميعاً يلعبون معاً . وكانت الألفة القديمة قد جعلت وجه (جيا) فى عينيه ، كوجهى أختيه ، سابحاً فى جو طاهر محايد .. فما لحظها قط باهتمام وهو يعيش بالقرب منها ! ولو أنه سئل عن تكوينها لأعياه الجواب ، ولكان كل رده أنها طويلة ، وليست بالمفتقرة تماماً إلى الجمال . ثم إن (جيا) كانت فى نظره ، كما كانت عند جميع من يترددون على (الفيلا) التى فى العزبة ، شبه (مربية) ، وأدنى إلى مرتبة الخدم منها إلى مرتبة الضيفة .. كانت من أولئك الأشخاص الذين ينظر المرء إليهم دون أن يراهم ! .. ولكن فجأة ، اختفت كل هذه الاستهانة ، وتغير كل شىء ..

وقد حدث هذا فى يوم من شهر أغسطس ، فى أشد أوقات السنة حراً . وكان (باولو) قد التمس النعاس عبثاً فى حجرته ، حيث كان يختنق بين نوافذها المغلقة ، فخرج من البيت مع العصر يبغى العثور على ركن ظليل يهيأ له فيه النوم .. وكانت (الفيلا) القديمة

الرحبة ذات الأبهاء والشرفات قائمة فى حديقة ، وسط الحقول ، وواجهتها تشرف على سهل واسع مزروع ، ترتفع من روائه التلال المكسوة بالأشجار .. فترك (باولو) البيت الهاجع وسعى إلى التلال ، إذ كان يعرف غابة صغيرة من أشجار (القرو) تقع فى قلب أحد الوديان ، على مسافة قريبة — وكان اسم العزبة (لاشيناى) قد اشتق من اسم أشجارها — ثم أمعن فى ممر يتلوى فى التل كالثعبان ، منكس الرأس تحت وهج الشمس ، مرهقاً بالحـر ، لا يفكر فى شىء . وكان يرى (الفيـلا) عالية فوق مستواه ، بنوافذها اللامعة فى الشمس ، ومن روائها السهل يترامى إلى الأفق الذى شاع فيـه اللون الأبيض من بخار الصيف ، وقد تناثرت فيـه أشجار الزيتون ..

فلما بلغ الغابة مشى تحت الأغصـان الخفيضة باحثاً عن مكان يستلقى فيه ، وكانت الأرض رخوة ، سوداء ، أسفنجية ، مغطاة بالأوراق الجـافة والثمـار والأعواد الصغيرة المتعفنة .. ولم يكن الجو فى الغـابة أروح من غيرها ، بل كان الهواء المحبوس الذى يهيم فيه الذباب الصغير يبدو ثقيلاً خانقاً .. وإن يكن فيه مفر من الشمس السـاطعة الملتهبة ، ومن انعكاس ضوئها الشديد الذى يعشى العيون .. وتلفت الشاب ، فلمح صخرة مكسوة بخضرة العفن ، قائمة بين جذعى شجرتين ، فخطر له أن وراء هذه الصخرة مكاناً طيباً ، فاعتمد عليها

بيديه وانحنى إلى الأمام .. وعنـد ذلك رأى (جيا) مستلقية على الأرض ، نائمة ..

كانت نائمة على جنبها وذراعاها المرفوعتان تستران رأسها ، وكان ثوبها الخفيف من الحرير الأحمر يشف عن جزئيات جسمها النحيل ، المخروطة .. ولحظ رشاقة الفخذ وانسيابه — فلقد كان من الخصر إلى الركبة ، مرسوماً بتمامه ! — وكان من الطول بحيث يبدو غير متناسب مع الجسم كله .. كما لحظ التناقض الفريد بين بشرة الذراعين العاريتين ، الباردة ، الشاحبة ، وبين الشعر الغزير الرطب المشتعل الذى يظلل الإبطين .. وأدهشته هـذه التفصيلات ، كما لو كانت (جيا) لم تعد فتاة كل يوم ، بل امرأة أخرى ، مجهولة منه ، ومرغوبة !.. وود أن يرى وجهها أيضاً ، متسائلا تحت تأثير ذلك الإحساس المحير عما إذا كان سيجد فيه ما ألفه من ملامح وسمات .. فالتقط غصناً دقيقاً وراح فى لطف يدغدغ به ذراعى الشابة النائمة.. وهزت جيا كتفيها قليلا ثم خفضت ذراعاً ، فكشفت وجهها الملتهب المتورد وخصلاتها السوداء المتهدلة على الخدين . وظهر الوجه لباولو غريباً غير مألوف ، غرابة الجسم ذاتها .. بل لقد رأى فى وجه الفتاة مسحة من جمال مترفع لم يلحظه من قبل !.. وكانت جيا فى نومها تقطب حاجبيها وطاقتى أنفها المعقوف ، بينما ترتسم تقطية خفيفة على شفتيها المنفرجتين ، وقـد لحظ أنهما ممتلئتان ، غضتان ، لهما لون الفـاكهة الحمراء الداكنة ، وكان تنفسها الهادئ أثنـاء النوم

قد ملأهما حياة وحيوية .. فإذا هما تشعلان فيه ، على حين غرة ، رغبة بلغ من عنفوانها أنه لولا عقبة الصخرة لانحنى فوضع عليهما شفتيه ..

وأراد أن يوقظها ، فناداها مرات باسمها ، فى صوت مضطرب ، بدا خافتاً ثم أخذ يعلو .. حتى استيقظت أخيراً بحركة استولت على حواسه :: حركة مليئة بالفتور الناعس .. وتلفتت برأسها وصدرها نحو مصدر الصوت :

– آه ! هو أنت !

قالتها بلهجتها المألوفة ، لكن عيونهما التقت فى اللحظة نفسها ، فاعتدلت جالسة فى وثبة مرتبكة ، وأردفت وهى تخفض رأسها :

– كنت نائمة ..

ثم نفضت ثوبها كى تسويه ، بضربات جافة من يديها المعروقتين .. وقد راحت تفكر من فورها فى تلك النظرة التى بغتتها فى عينى الشاب .. واندفعت بكل ما لخيالها الساذج من عنف ، نحو ذلك الطريق الذى ما خطر من قبل ببالها ، والذى بدا أنه يتفتح فجأة أمامها .. فأدارت نحو (باولو) وجهاً أدهشه ، يختلف عن ذاك الذى يعرفه .. وجهاً مفعماً بالدلال العابث ، غير المطمئن .. ثم قالت :

– كنت نائمة .. ولكن ما دمت قد أيقظتنى ، فتعال على الأقل كى أتنفس بصحبتك !

وبقفزة صار إلى جانبها ..

* * *

● وقضيا العصر كله معاً ، يتنزهان بين التلال ، ويقطفان أزهاراً برية ، أرادت جيا أن تجمع منها باقة كبيرة . وكان حديثهما فى ذلك اليوم شبيهاً بما ألفا تبادله من حديث ، ولكن الجدة كانت فى النبرة والقسمات .. وكان اتفاقاً مضمراً قد عقد بينهما منذ التقى بصراهما فى تلك النظرة ، بداية لعهد جديد يحمل بذرة مستقبل خارج عن إرادتهما ! .. وكأنهما منذ تلك اللحظة اتفقا على أن من الخير أن لا يتعجلا الأمور ، ولا يستحثا القدر ..

:. وكانت (جيا) أسرع منه اندفاعاً فى هذا الطريق ، وأكثر لهفة ، وأشد تأهباً للمزيد !.: على حين كان لباولو ذلك الذكاء البسيط الصريح الذى ينعم به العقلاء ، والذى يتيح لصاحبه أن يرى من اللمحة الأولى كل نتائج أعماله !.: كان وهو يسايرها يحاول قمع اضطرابه كلما عاوده قائلا لنفسه : إن جيا هى صديقة أخته ، وأن علاقته بها – حتى ذلك الحين – كانت تشبه صلة القرابة !.. بل إنها كانت – فوق ذلك – قريبة فقيرة ، بلا معين ، تستقبل فى بيت أسرته من باب « الصدقة » ، إلى حد ما .. فكان مركزها فى ذلك البيت أدنى من أن تكون له نداً ! .. لذلك كله فرض الفتى على نفسه الحرص ، كى لا ينساق إلى خطأ يضعه ويضع جيا قبله فى مركز حرج .. فكان يجاوب إيماءاتها المتوددة مراعياً أن لا يتخطى



وقضيا العصر كله معًا ، يتنزهان بين التلال ، ويقطفان أزهارًا برية . أرادت جيا أن تجمع منها باقة كبيرة ..

حدود المسموح به !.. ولم يكن هو يخفى أحاسيسه ، وإنما حرص على أن لا يعبر عنها بإحدى تلك الحركات التى إن صدرت منه فلا علاج لها .. والتى كانت نفسه تراوده فى بعض اللحظات على أن يستسلم لها !

كانت لعبة خطرة ، فلقد لمحت (جيا) تحفظه ، فأمعنت فى وخزه بحيلها الساذجة !.. وهكذا انقضى يومهما فى ضحك ودعابة .. ثم عادا قبيل المساء إلى « الفيلا » متعبين ، ولكنهما ناعما البال ..

* * *

● ولم تأت الأيام التالية بجديد ، فكانا يقضيان الساعات معاً فوق التلال ، دون أن تفلح رغبة (باولو) ودلال (جيا) فى دفعه إلى إعلان عواطفه !.. كان مركز الفتاة فى أسرته ، كشخصية تابعة تتلقى الإحسان ، يمنعه من أن يستبيح معها نفس الحرية أو الصراحة التى كانت متاحة له لو أنه غازل صديقة فى مرتبة أخته !

أما جيا فكانت من الفتيات اللواتى لا مفر للرجل معهن من أن يسلك أحد طريقين : الزواج !.. أو تركهن وشأنهن !.. فما من سبيل معها إلى غرام خفيف بين شاب وفتاة فى سن واحدة ، وإنما هى المغامرة الخفية العنيفة ، غير الممتعة .. الشبيهة بصلة مع خادمة !.. ورغم شغفه بها ، فقد كانت فكرة الزواج منها أبعد ما تكون عن ذهنه .. فى الوقت الذى كان يحنقه فيه ، ويخزيه ، ما يشعر به كل

يوم من انزلاق نحو علاقة من تلك العلاقات المنكرة التى تقوم بين سيد شاب ووصيفة !.. وهكذا صار يحمر خجلا ، أمام أخته وضيوفهم ، كلما لفته ما فى حديثه معها من اهتمام يفوق المألوف !.. فإذا انفرد معها ، لم يستطع منع نفسه من النزول إلى مرتبتها !.. وكان يلقاها دائماً فى الخفاء : فى الليل ، وفى ساعات الراحة ، وفى الممرات والأركان الخالية ، كما لو كان يلتقى بخادمة !

* * *

● وطال لومه لنفسه على عاطفته ، وتصرفاته التى كان يراها غير جديرة به . ولم يكن يدرك أن لها ما يبررها ، إلى حد كبير ، من مسلك (جيا) نفسها ، بكل ما كان ينطوى عليه من تدبر وخضوع .. ورغم أنه كان يؤثر أن تكون الفتاة نداً له ، وأن ينحصر حبهما فى نوع من التسلية التى لا نتائج لها ، والتى لا تؤول إلى الفضيحة ، وغالباً ما تمهد للزواج .. إلا أنه كان على العكس من ذلك يحس بنفسه منساقاً ، رغم كل جهوده ، نحو ولع خفى لا يتغذى بغير الرغبات العكرة ، بل يقوم على عواطف ليست أقل بعداً عن الحب الحقيقى من الاشمئزاز ، والقسوة ، والاحتقار .

وقد ظل يصارع هذه الدوافع المتناقضة ويقهرها ، حتى كانت عشية اليوم المحدد لرحيل (جيا) ، ففقد سيطرته على نفسه وغادر حجرته قاصداً حجرتها ، وهو لا يعرف ما ينوى فعله .. مطمئناً نفسه بأنه سيكتفى بإعلان لحبه !.. وكانت حجرته وحجرتها يفصل

بينهما صالون كبير مكتظ بالأثاث ، كان ضيوف البيت يجتمعون فيه بعد الظهر ، وكانت تسوده فى تلك الساعة من الليل ظلمة حالكة.. فتقدم نحو غرفتها ، وهو يصطدم — رغم حذره — بكرسى أو مائدة ، دون أن يفقد إدراكه بما فى هذا « الاقتحام » الليلى من نبو وغرابة .. فلما بلغ منتصف الصالون ، لمح بأسفل باب (جيا) خيطاً من النور ، فعراه الاضطراب أمام فكرة يقظتها هناك — كما لو كانت تنتظر قدومه ! — لكنه تقدم على هدى النور حتى بلغ الباب ، فتوقف عنده لحظة متردداً ، قبل أن يجمع عزمه فيطرقه !.. وارتفع صوت يدعو الطارق إلى الدخول ، ولدهشته الشديدة لم يكن صوت جيا ، بل صوت إحدى أختيه !

* * *

● كانت جيا — فى قميص من «الفوال» الأزرق محلى بورود صغيرة حمراء — جالسة عند رأس سريرها وظهرها إلى الحائط ، وذراعاها النحيلتان مستلقيتان فوق الأغطية .. وقد بدت مسترخية .. عاشقة .. كما تبدو النساء فى فراشهن !.. وقد جثمت عند قدميها (أنا) صغرى أختيه : بنت لطيفة ظريفة لم تكد تتم أعوامها الثمانية عشرة ، وكانت تبدو فريسة اضطراب مستعذب ، شأن إنسان مازال يرتاب فى حدث سعيد وجد فيه ما أرضى غروره !

وصاحت (أنا) حين رأت أخاها :

— جئت فى الوقت المناسب !

فاعتذر الشاب فى خفوت وهو لا يزال فى انفعال المفاجأة ، وسأل عما يدور ، فقالت (أنا) وهى تمط شفتيها فى دلال ، وقد جلست على السرير وأخذت يد صديقتها فى يدها :

— قولى له أنت يا (جيا) .. قولى له ، أنت .. فلست أدرى حقاً كيف أروى له الأمر !

والتفت باولو إلى جيا ، فاتخذت هذه مظهر الأمومة وهى تسرد الوقائع : شاب من رواد البيت سأل (أنا) اليوم أن تكون زوجته.. وكانت جيا وهى تتكلم تدلى برأيها فى الخاطب ، بوصفها شخصاً خبيراً ، ملماً بهذا النوع من الأمور .. كانت ترى له مزايا عظيمة ؛ أبرزها أنه ثرى ومن عائلة ممتازة .. وكانت (أنا) تهز كتفيها — فهذه مزايا يسعها أن تهم جيا ، الفقيرة المتواضعة ، أما هى ، فلا ! — كل ما قالته أن الطلب كان مفاجئاً ، لأنها لم تكن متهيئة له ، وأنها لا تستطيع الآن أن تتخذ قرارها .. وهنا وجدت جيا من واجبها أن تقنعها ، بذلك الحماس المفرط المعهود عند الأشخاص ذوى الوضع الثانوى ، عندما يطلعهم شخص أعلى مقاماً على مسألة لا تعنيهم فى شىء .. فقد تحمست وراحت — بإيمان غريب — تصور المسرات التى يعد بها مثل هذا الزواج ، وتثنى على الشاب وأسرته ، رغم معرفتها الضئيلة بهم .. متوسلة إلى (أنا) أن تفكر قبل أن تقرر الرفض !.. وبلغ من حماستها ما جعل صديقتها تقاطعها فجأة فى قسوة لم تخل من قصد :

— رويدك ، هدئى من روعك !.. فإنها على كل حال أشياء لا تعنيك كثيراً . إن من يسمعك يحسب أنك أنت التى ستتزوجين ، لا أنا !

كانت العبارة قاسية من جانب فتاة جاءت بنفسها قبل دقائق قليلة تتوسل إلى (جيا) أن تعينها برأيها !.. ولم تكن جيا تتوقع هذه الوخزة ، وهى تندفع فى تحمسها المنبعث عن مروءة ، غير المتأهب للدفاع ، فبدا عليها أن مشاعرها قد جرحت ، ولاذت بالصمت ، وقد احمر وجهها تحت وطأة المرارة والإحراج .. ولكن ما لبثت أن حاولت إخفاء ضيقها تحت قناع من الحرارة المتكلفة ، فقالت : « وما شأنى ؟ .. إنى لم أقصد غير مجرد الكلام . لقد سألتنى رأيى ، فقلت لك ما كنت أفعله لو كنت مكانك ! » .

وفتحت هذه الكلمات التى نمت عن إخلاصها ، عينى الشاب فجأة ! كان واضحاً أن هذا الحماس الجميل قد انبعث عن شعور (جيا) ، وهى تسدى النصح لصديقتها ، بأنها ترى نفسها حقاً فى مكانها ! كما أن (جيا) كانت تقوم — عن وعى أو دون وعى — بعملية « استبدال » أخرى ، فتضع باولو مكان الشاب الذى يخطب ود (أنا) !.. وما كان هذا الخطاب الذى ألقته غير إيماء إلى باولو وشخصها .. وما كانت المزايا والطيبات التى تغنت بها سوى صورة لما فى ذهنها عن زواجها هى من فتاها !

* * *

● وهكذا عرف (باولو) ما كانت تفكر فيه ، وصار عليه هو أن يتخذ قراره !

وهنا تمثلت له الحقيقة الواقعة بتمامها ، ووضح فى ذهنه معناها الذى غيبه عنه ولعه المبهم .. فاعتراه فجأة الخجل من نواياه ورغباته التى دفعته إلى حجرة جيا !.. وعاد يراها الآن كما كان يراها دائماً : فتاة بلا حول ولا طول ، تحت رحمته ورحمة كل من يريد استغلال ضعفها !

وأقسم لنفسه أن يضع منذ اليوم حداً لعبث كان – مع ذلك – بريئاً .. وازداد قراره هذا سهولة أمام فكرة رحيلها فى اليوم التالى !.. أما فى العام المقبل فلسوف يقضى الصيف فى مكان آخر ، حتى تعود علاقتهما إلى ما كانت عليه من قبل ..

وكان الحوار أثناء ذلك قد استؤنف بين (أنا) الحائرة و (جيا) المتحمسة .. وكانت جيا وهى تتكلم ترميه بين وقت وآخر بنظرات جريئة .. أو تسائله رأيه ، كى تقحمه فى الحديث .. لكنه كان يمتنع عن الرد ويحول عينيه .. وأخيراً نهض فحيا الفتاتين وغادر الغرفة ..

* * *

الفصل الثالث

● لم يكن (باولو) مخطئاً فيما بدا له ، فكما تكفى شرارة لإشعال قطعة من خشب يابس ، كان فى غزله البرئ الكفاية لإشعال مخيلة (جيا) بالآمال الوهمية !.. فما عادت تحيا منذ التقيا أول مرة تحت أشجار (القرو) إلا له ، وإن كان ذلك منها أدنى إلى الطموح والغرور منه إلى الحب !.. لكن (جيا) كانت فى تلك السن التى لا تكون العواطف فيها نقية خالصة – طيبة كانت أم شريرة – بل تمترج فى إرادة للحياة واحدة عارمة .. ذلك أن فكرة الزواج من (باولو) لم تكن عندها منفصلة عن الرجاء فى الخروج السريع من وضعها الحاضر بكل ما فيه من ضعة وبأساء .. فصارت تنتظر كل يوم ، فى قلق ، أن يصارحها بحبه ويحقق رجاءها .. وهذه الرغبة العارمة ، الأشد قوة من شهوة الحواس – تلك الشهوة التى كانت ما تزال هاجعة فيها على استحياء – كانت تتخذ فى بعض الأحيان شكل فكرة متسلطة حقيقية ، فكان يحدث لها فى المساء أن تصل راكعة على ركبتيها أمام أية صورة دينية ، متوسلة فى ابتهال من أجل نجاح خطتها .. أو تظل فى ساعات القيلولة الشديدة القيظ ممددة على سريرها تبنى صروح مشروعاتها ، وتتخيل حياتها عندما تغدو آخر الأمر زوجة لباولو !.. كانت ترى نفسها فى بيت جميل ، فى مدينة كبيرة ، يحف بها الأصدقاء ، وتدعى إلى كل مكان :. غنية ،

ومعروفة ، ومرتفعة فوق مستوى سواد الشعب !.. إنها كانت أحلاماً بسيطة ورؤى بلهاء ، تجسمها لها حياة طويلة حافلة بالصعاب ، والانكسارات ، والرغبات .. تجسمها فى عنف خارق ، وفى دقة متهوسة ، كأنها رؤى عالم مثالى ..

وفى انتظار تحقق هذه الأحلام ، وبدافع من الطموح ونفاد الصبر ، كانت تنساق بسذاجة — ودون أن تدرك ذلك — نحو تعريض نفسها للافتضاح والتورط !.. صارت تسائل نفسها ، وقد دنا ميعاد رحيلها دون أن تظفر بذلك الأمل المنشود : ألا يحسن بها أن تتخطى هى حدود الدلال المعقولة ، حتى تنال من الشاب ما تبغى ، باستفزاز أكثر توريطاً !.. لم يكن عندها ريب فى أن (باولو) يحبها ، فأيهما يهيج صبوته ويؤجج ناره : الاستسلام ، أم التأبى؟!.. أتراها تنجح فى الزواج منه إذا هى منحته خضوعها ؟ .. كان هذا هو السؤال الذى قاد عاطفتها إلى التدبير وحبك الخطة ، حتى صارت تعتبر مفاتنها الشخصية أدوات نافعة يجمل بها استخدامها برباطة جأش عندما تتطلب ذلك ظروف الصراع !

وفاجأتها زيارة (باولو) ووجدانها فى هذه الحال .. وكانت الزيارة واقعة شديدة الوضوح ، ولا سبيل إلى الشك فى مغزاها : فها هو ذا مفتون بها حقاً ، ولو أنه وجدها وحيدة فى تلك الليلة ، لاستطاعت بقليل من اللباقة والانفعال المتقن أن تنتزع منه كل ما شاءت من وعود ، دون أن تمنحه كثيراً !.. وقد غمرتها هذه

الفكرة بفرح مشوب بغضب حزين : يا للمصادفة البلهاء ! لقد أفقدها وجود (أنا) فى حجرتها فرصة ثمينة ، وربما تكون فريدة .. وقد لبثت طويلا بعد خروج صديقتها تفكر فيما تفعل ، وتلعن حظها السيء ، فتراودها فكرة الذهاب بدورها إلى حجرة (باولو) ، ثم يطيب لها أن تمنى نفسها بأنه سيعود !.. وتظل ترهف السمع ، راجية أن تسمعه يعبر الصالون إلى مخدعها .. وكانت واثقة من شيء واحد على الأقل : إنها تملكه ، وما عليها إلا أن تدع للزمن إتمام الأمر !.. وكان اطمئنانها إلى هذه الفكرة هو الذى عدل بها آخر الأمر عن الإقدام ، فاكتفت فى ليلتها بهذا النصر الجزئى .. ونامت على هذا العزاء !



● ونهضت فى اليوم التالى وملء رأسها آمال ومشروعات .. ولكن كم كانت خيبة أملها شديدة حين علمت أن (باولو) قد رحل إلى روما ، « بسبب حلول موعد امتحانات الجامعة » ، كما قالت شقيقتاه !

.. وانتظرته بلهفة طوال يومين — اليومين الباقيين لها فى ضيافة الأسرة — ثم يومين آخرين ، متعللة بحجة عثرت عليها لتأخير رحيلها .. وفى اليوم الثالث تلقت بطاقة بريد لا تحمل منه غير تحية !.. وفى اليوم الرابع فهمت أنها لن تراه مرة أخرى فى هذه السنة ، فأذعنت للرحيل ..

كان الصيف فى نهايته ، وضيوف الأسرة قد قرروا مغادرة (الفيلا) .. وكان من بينهم شابان كانا سيمران بالمدينة التى تقطنها (جيا) ؛ فى طريقهما إلى روما ، فأخذاها معهما فى سيارتهما .. وكانت رحلة مرحة حافلة بالضحك والدعابة ، ولو أن جيا كانت فى ضحكها إنما تنشد نسيان أحزانها ، والهرب من همها .. هم عودتها إلى بيت أمها !.. وأخيراً ظهرت فى أفق السهل الفسيح تلك القمم التى تعرفها جيا حق المعرفة ، وعلى أبعد ذروة منها – تلك الذروة الداكنة اللامعة ككتلة من حديد على الضوء الخافت لسماء الخريف – طالعتها المدينة بأبراجها ، وسقوفها ، وجدرانها .. وأحست بقلبها ينقبض لهذه الرؤية ، وعانت ، وهى تواصل الكلام والضحك مع رفيقيها ، نوعاً من الشعور – سلفاً – بشر مقبل .. كما لو كانت هذه الأبراج وهذه الواجهات الجهمة ، بنوافذها التى كانت أحياناً تتوهج تحت أشعة الشمس ، قد اتخذت أكثر مظاهرها عداوة ، كى تفزعها ، وتهددها بأشد وأتعس شتاء مر بها !

وفجأة اقترحت فى صوت منفعل : « أوه ! لماذا لا نواصل السفر إلى روما ؟ » .. فأجاب الشاب الذى كان يقود السيارة قائلا فى شهامة إنه يرحب بها إذا شاءت أن تقيم فى بيته !.. فخجلت جيا وتوعدته وهى تضحك بأن تأخذه بكلمته !

وحاول الشاب كى يستثيرها إلى اللعبة أن يقنعها بأنه يتكلم جاداً ، فإذا قبلت فهو عند كلمته .. وفى جو هذا العبث بلغوا مع

مهبط الليل مدينة جيا ، فافترقوا فى ميدان الكاتدرائية .. واستأنف الشابان السفر إلى روما ، بينما آبت جيا إلى بيتها ..



• وكانت الكآبة دائماً طابع كل عودة لجيا من الريف ، فبعد ما تكون قد نعمت به خلال شهرين من ترف ورخاء ، كان المبنى القديم فى قلب الزقاق ، بسلمه الخشن الضيق وحجراته النابية ، يملأ نفس جيا بإحساس قوى بالانهيار والبؤس .. فهى تقبل أمها فى فتور وتهرع من فورها إلى دورة المياه – المكان الوحيد الذى يستطيع من بداخله أن يوصد على نفسه بالمفتاح – وهناك ، فى ذلك المنعزل السيء الرائحة ، وأمام النافذة الصغيرة المطلة على الحدائق المشمسة ، كانت تتوه نظراتها وهى تبكى ما طاب لها البكاء ، قبل أن تلطف بالماء البارد عينيها المحمرتين وتعود إلى أمها .. وهذه المرأة التى كانت تشارك فى هوى ابنتها ، كان يبدو عليها أنها تخمن مرارة هذه العودة ، فلم تكن – على حبها لجيا وسعادتها برؤيتها – تستقبلها بما قد يثقل عليهما من مظاهر الحنان ، بل كانت تبزها فى البرود وقلة الكلام .. مكتفية ببضعة أسئلة عادية عن رحلتها ومقامها ، تعود بعدها إلى مطبخها أو إلى ما يشغلها من حياكة ..

أما فى هذه السنة فقد كان يلطف من مرارة جيا المعتادة رجاء عذب : فلئن عادت مرة أخرى إلى بيتها الفقير ، فما ذلك إلا لأمد قريب !.. وكانت مفعمة النفس بهذا اليقين إلى حد جعلها تتعجل

الكلام عنه ، فنسيت إظهار امتعاضها التقليدى الذى كانت تختم به فى كل مرة موسم الصيف ، واندفعت تقبل أمها فى توثب خارق حقاً للمألوف .. وقالت أمها إن خدودها أكثر توردا ونظرتها ألمع مما كانت يوم رحيلها !

وقالت جيا : « ليس هذا بغير سبب ! » .

والتقت عند هذه الكلمات نظرتا المرأتين ، وفهمت إحداهما الأخرى ، فعادتا إلى تبادل القبلات !.. وبعد فتح الحقائب جلستا إلى المائدة ، فألقت الأم على الابنة السؤال التقليدى : « من يكون ؟.. وكيف حدث الأمر ؟ » .

وحكت (جيا) تفصيلات هنائها دون أن تسمى (باولو) ، وصرحت بيقينها من أن كل شىء كان حرياً أن يتم ، لو لم تكن صديقتها موجودة فى حجرتها عندما طرق الشاب بابها !

وبدت الأم أقل اقتناعاً ، لكنها رأت ابنتها فى أوج حلمها ، فلم تشأ أن تجردها من أوهامها ، واكتفت بأن تسألها من جديد عن اسم الشاب ؟ .. فقالت جيا فى مرح : « خمنى ! » .

وبدأت الأم تلقى أسئلة وتجرب افتراضات ، وكما يحدث فى لعبة البحث عن اسم شىء مخبوء ، كانت جيا تقول لها : « دنوت ! » أو « بعدت ! » كلما شارفت الحقيقة أو نأت عنها .. وكانت الأم تستطلع وتسأل وتقترح أسماء ، ثم لا تبلغ الحقيقة ، كأنما يطيب لها

أن تبدى شيئاً من العناد الغريب فى إخراج باولو من حقل بحثها ! .. وأخيراً صاحت جيا بنفاد صبر :

- كيف يسعك أن لا تفهمى ، مع أنه استنتاج بسيط ؟ !.. إنه أول من كان يجدر بك أن تسمى ، دون أن تشطحى هكذا بعيداً فى بحثك !

- فمن يكون إذن ؟

- (باولو) طبعاً ! كيف لم تفكرى فيه فى الحال ؟

وكانت تتوقع تهنئة ، أو على الأقل أسئلة ، فإذا بأمها صامتة تحدق فيها بعينين محا القلق نظرتهما الضاحكة الشابة !.. فسألتها جيا مندهشة من هذا الأثر العجيب :

- لماذا تنظرين إلى هكذا ؟ ألست راضية عن الأمر ؟

فأجابت الأم ببطء ، وفى صوت خفيض :

- طبعاً . إن كان ماتقولينه حقاً ، فأنا به سعيدة ..

لكن النبرة لم تكن مع ذلك نبرة من وقف لساعته على نبأ طيب !.. بل لقد كان جفناها يخفقان وهى تهز رأسها وتعض شفتيها ، وتفرك منديلها بين أصابعها .. ثم سألت ابنتها فى فضول خجول ، مختلس ومتوجس ، كما لو كانت تخشى الجواب : أى نوع من العلاقات كان لها مع الشاب !.. وفكرت جيا فى سرها : « هو هذا إذن ! » ، ثم سارعت تطمئن أمها : فما كان بينها وبين (باولو) غير الكلام ، وما ورطت نفسها !

ولكن لم يبـد أن هذه التأكيـدات قد أحدثت أثراً كبيراً عند مدام (فوريزى) ، فقد تنهدت من جديد وتأملت ابنتها طويلا دون أن تكف عن لف منديلها وإعادة لفه ، ويداها على ركبتيها !.. وكان وجهها الأبيض المكتنز قد اكتسى بسحابة تعبير أليم لم تستطع (جيا) فهمه أو تحـديده : أهو حزن ، قلق ، خوف ، خزى ، شفقة ؟ ما من واحـدة من هذه العواطف بدت لها كافيـة لوصف ما تشى به أمها !.. إنه نوع من الكآبة الجنائزية كالذى يعترى شخصاً عند وسادة مريض جاهل بحالته ولا علاج له .. ولا شجاعة عند زائره على أن يقول له الحقيقة !

* * *

● على أن الأم لم تلبث أن نفضت عنهـا حالهـا وسيطرت على نفسها ، وأعلنت بحرارة مغتصبة أن لا مطمع لها فوق أن تكون جيا راضية .. فسألتها جيا فى دهشة : لم تتكلم هكذا ؟

وأجابت الأم بأنها ليست واثقة تماماً من أن نوايا الشاب جادة ، فهى تجد صلتهما طائشة ، وعلى جيا أن تتصرف بأقصى ما يسعها من تحفظ .. وردت جيا فى حـرارة قائلة إن شرف (باولو) لا يمكن أن يوضع موضع الشك !.. لكن الأم كانت تنطوى على إرادة واضحة وراسخة للتهوين من شأن هذا الزواج ، ولإعداد ابنتها لخيبة أمل متوقعة !

وصارت جيا ، فى ذلك اليوم والأيام التى تلته ، كلما تكلمت عن (باولو) ، لم تدع أمها الفرصة تفلت منها دون أن تنتهزها للتلميح بريبة أو شبهة !.. لكن جيا لم تحفـل بذلك بل لاذت بآمالها ، فقد رأت لموقف أمها تفسيره فى الحب الأموى .. ولعل الأم أصيبت فى شبابها بخيبة أمل ، جعلتها تخشى على ابنتها من مغبة مثل هذه التجربة المرة !

* * *

الفصل الرابع

● كأنما لم يكف المرأتين هم القلق الذى كان ينغصهما كلما تناقشتا بشأن (باولو) .. فجاء الشتاء هو الآخر قاسياً عليهما ، إذ زاد عبء فقرهما وطأة وتفاقماً ، سيما وأنهما لم تنجحا خلاله فى غير تأجير حجرة واحدة من الحجرات الثلاث التى اعتادتا تأجيرها كل شتاء !.. وهكذا اضطرت (جيا) إلى النزول عن ملابس كانت فى حاجة إليها ، واختصرت أمها نفقات البيت إلى أقصى حد ممكن .. ثم توجت هذه الظروف الأليمة مضايقة من نوع آخر : فإن نزيلهما الوحيد ، وهو أستاذ شاب لعلم الطبيعة اسمه (فاجنوتسى) ، وقع فى هوى جيا .

وكان هذا (الفاجنوتسى) رجلا ضئيل الجسم ، يابساً ، خجولا ، كله انتفاضات عصبية مستعصية على القمع .. كما كان متزمتاً فى نظامه ، متحرجاً ، متعالماً ، لا يعرف شيئاً ولا يهتم بشىء خارج نطاق عمله الذى كان يتكلم عنه باستمرار ، ويلون حديثه عنه بضحكات صغيرة و « قفشات مهنية » وانتفاضات عصبية ، وقد بدا عليه الرضى واللذة !.. وكان رغم شبابه أصلع ، أصفر ، جافاً كالشيخ المسن .. ولكن خلف نظارته الضخمة كانت تبرق وتطرف عينان صغيرتان ، غريبتان فى قوتهما !.. وكان زملاؤه متفقين فى الرأى على أن له مستقبلا .. بل كانوا يعتبرونه (أستاذاً) قبل أن

يحصل على كرسى الأستاذية !.. لكن (جيا) لم تكن تعرف من ذلك شيئاً – ولو عرفته لما كانت له عندها أية قيمة ! – فإنها كانت ترى فى (فاجنوتسى) رجلا مسكيناً ، مأمون الجانب ، فاقد الاتزان – وعلى شىء من البلاهة ! – سيما وأن كل ما يمت للحياة الفكرية كان نصيبه منها الاحتقار الحاسم المطلق ، الذى لا ينبع من جهلها وحده ؛ بل من إيمانها الأعمى بصحة فهمها للقيم الإنسانية .. الفهم الذى يهبط بهذا (البروفسور) الخامل الأصل إلى أسفل درجة من السلم الاجتماعى ، فى حين تضع جيا فوق الذروة الشبان ذوى الألقاب ، الأغنياء ، المتبطلين ، الذين كانت تلقاهم كل صيف فى تلك الضيعة بالريف !

* * *

● لكن (فاجنوتسى) مع ذلك عاشق لها ، يغازلها فى غير خبرة – أسوأ غزل ! – على نحو (غشيم) مضحك ، مسرف فى التحبب والاهتمام المتكلف ، بلهجة (الأستاذية) .. وكان هذا يحدث على وجه العموم أثناء الوجبات ، وبشكل أندر فى المساء ، حين تقنع جيا بصحبة عاشقها المستهام (الغشيم) ، هرباً من التبكير بالنوم ، ولعدم وجود (ما) هو أفضل منه فى جعبتها !

وكانت حجرة الطعام صغيرة ، طويلة فى غير سعة ، ذات سقف خشن البياض ، تشغلها بأكملها مائدة ضخمة . ولم يكن يجلس إليها فى هذا الشتاء غير جيا وفاجنوتسى ، أما مدام فوريزى فكانت

دائماً على قدميها تسعى بالأطباق .. وكانت جيا تأكل قليلا ، وبغير شهية ، ولا تكاد تتكلم .. وقد شردت نظراتها التائهة إلى المصباح المدلى من السقف فوق مفرش المائدة – بسلك بسيط ، يستقر عليه الذباب ! – والذى تستره ظلة (أباجور) من حديد مطلى ، وتحركه ثقالة كبيرة من النحاس .. ولم يكن (فاجنوتسى) يكف عن الثرثرة: كان يطرف بعينيه ويدعك يديه وهو يحدثها عما يدور فى الجامعة ، ويتكلم برضى عميق عن أبحاثه فى المعمل ، وقد يجازف فى بعض الأحيان بطرفة من الطرائف التى يكررها الأساتذة كل سنة فى قاعات الدرس كى يروحوا عن تلاميذهم جدبة العلوم الصعبة !

وكان فى وسع أى فتاة غير جيا أن تخمن ما لهذا الرجل من امتياز وذكاء ، وأن تفهم أن هذا الترنح فى الحديث مرجعه إلى خجله وافتقاره إلى التجربة ؛ وأن توجهه هى إلى ما تألف من موضوعات الحديث .. لكنها وهى مستغرقة فى أحلام الغرور والعظمة لم تكن ترى فيه إلا نزيلا مملا ، فضولياً ، تتحمله مرغمة تحت ضغط حاجتها إلى العيش !.. وكان واجب مخاطبته والاستماع إليه يثير نقمتها ، حتى ليتحول احتقارها له أحياناً إلى بغضاء متمكنة .. فكانت عذاباً لها هذه الوجبات حول المائدة الكبيرة ، مع أمها الغادية الرائحة فى صمت وبطء تحمل الصحاف والأطباق من المطبخ إلى صالة الأكل ومن صالة الأكل إلى المطبخ ، و (فاجنوتسى) المتضرم جوى يطاردها هى بثرثرته وحركاته التى تثير حنقها !

وكان الشتاء رهيباً: إذا توقف المطر وسكتت قرقرة الماء المندفع فى البالوعات الشرهة ، عصفت فى الزقاق ريح معولة تنطلق من تلك الجبال الغارقة فى المطر ، لترتفع إلى السماء فى زوابع ودوامات ولهى ، أو تنقض فى بعض الأحيان كملاءات ثقيلة مبتلة تئن لها النوافذ وترتج الأبواب داخل البيت !.. وكانت جيا تصغى إلى ضجيج العاصفة ، وقرقعة الأوانى إذ ترتبها أمها فى المطبخ ؛ وصوت (فاجنوتسى) العصبى الذى تقطعه شهقات وضحكات قصيرة .. فيبدو لها أن كل هذا الذى تسمعه غير حقيقى ، وكأنه آت من عالم قصى ناء تفصلها عنه منطقة سكون مهيب لا يمكن اقتحامها !.. وكانت هى ، فى هذا السكون ، أشبه بصورة مقدسة على حائط كنيسة ، لا تسمع الصلوات ولا الخطى والهمسات ، وإنما تدير عينيها نحو السماء .. وسماؤها هى كانت تلك (الفيلا) التى تجد فيها كل صنوف حياة سهلة ومجتمعاً لطيفاً !.. وسواء عندها بعد ذلك أن يتكلم فاجنوتسى أو تصفر الريح أو ينقر المطر النافذة ، أو تنزلق الأطباق من يدى أمها !.. إنها تستطيع دائماً ، بالفكر ، أن تلوذ بعالم أحلامها ، ولا تترك على الأرض إلا شبيهة لها ، جامدة ، خاوية ، خرساء !

وهكذا مر الشتاء ، كئيباً !

* * *

● لكن جيا تلقت فى شهر مارس رسالة من (باولو) ! :: كان وهو فى روما – حيث تضطره دراسته إلى البقاء – قد تذكر جيا ، والميل الذى أحسه نحوها .. وكما وقع له فى تلك الليلة التى دفعه هواه فيها إلى بابها ، لم يقو على مقاومة عضة الذكرى ، وإغراء تجديد علاقتهما القديمة .. وربما ساوره أيضاً أمل ، لا يعترف به حتى لنفسه ، فى أن يمهد للقائهما القريب فى الصيف !.. وكانت بداية الرسالة اعتذاراً ، ثم استرجاعاً لذكرى نزهاتهما .. واختتمت بعبارات تفصح بغير التواء عن الحنين والرغبة !

وفى ذروة الرضى ردت جيا عليه من فورها برسالة أطول من رسالته مرتين ! .. فكتب إليها مرة أخرى .. وهكذا بدأت بينهما سلسلة متصلة من المراسلات . وأتاح لهما البعد جرأة على التخلى عن الكتمان القديم ، فتصارحا فى حرية وثقة ..

وزينت فرحة (جيا) لها أنها حقاً .. عاشقة ! .. وكانت تخفى رسائل (باولو) فى أحد الأدراج ، تحت ملابسها الداخلية . وكلما وصلت رسالة منه راحت تقبلها بعد قراءتها ، فى شوق ملهوف ! وكان(باولو) قد كتب تلك الرسائل العاطفية خلال جو العمل ، والسأم ، والوحدة .. فبدا تحت تأثيرها يحب جيا (حباً) حقيقياً .. أما هى فلم تكن تتحدث فى رسائلها إلا عن نفسها وعن حياتها . كانت تصف الحزن والضيق والسأم من الريف ، وتعبر عن رغبتها فى تغيير حياتها ومغادرة بلدتها الصغيرة .. كانت تفتح نفسها وتفضى

بمكنونها فى استسلام هائم مضطرب ، ملىء بالسذاجة المصطنعة أو غير المقصودة ، وتودع رسائلها قليلا من كل شىء : عبارات طالعتها فى روايات ، أو سمعتها فى السينما ، ومقتطفات من محادثات اجتماعية ، وملاحظات مستعارة من كتبها المدرسية – وهى الكتب الوحيدة التى قرأتها فى حياتها قراءة جدية ! – ثم شذرات شتى من كل مكان ، غير صادرة منها ولا هى فكرت فيها أو أحستها ، لكنها كانت تثملها إلى درجة أنها تستدر دموعها !

كانت رسائل مجردة من الإخلاص ، من أول كلمة فيها إلى آخر كلمة ، لكنها مكتوبة بمضاء الثقة ، بذلك الإتقان الملعون الذى ينفرد به الكذب إذا طال احتضانه قبل تفريخه !.. ولم يكن (باولو) يعرف كل هذا ، فوجد فى رسائلها كنزاً من الجمال ، وإن أخذ عليها تنميقها وطابعها الأدبى .. أما (جيا) فكانت متى ملأت ثمانى أو عشر صفحات من الاعترافات الوهمية والتقليدية ، تحس أنها قد تحررت من وطأة الآلام الخفية غير المحتملة !.. وقد أثر هذا الوهم على شخصها ذاته : فصارت لها هيئة أقل تعالياً وأقل اكتئاباً ، وصار فتورها القديم هدوءاً واثقاً ، وتنبه الكثيرون من أهل البلدة إلى أنها قد اكتسبت حسناً وتألقاً !

* * *

● وكان أول من لحظ هذا الحسن ، ودار منه رأسه ، البروفيسور (فاجنوتسى) .. فبدا ذات مساء ، حول المائدة ، أكثر إغراباً

وعصبية من المعتاد : صار كل شيء يضحكه ، فيدعك يديه ويهمهم بكلمات مبهمة ، كما لو كان يكلم نفسه ، أو يرشق (جيا) فى جرأة بعينيه البراقتين الحادتين !.. ثم لم تكد تنتهى الوجبة حتى مال على مدام فوريزى فأمسكها بقوة عنيفة من ذراعها وهمس فى أذنها بأنه يريد أن يحدثها على انفراد !

وكانت همسته خفيضة ، ولكن ليس إلى الحد الذى يمنع (جيا) من سماعها .: فهمت على الفور ما سيحدث ، ونطق وجهها — فى انفعال — بتعبير التعالى والاحتقار .. ثم دفعت كرسيها ونهضت خارجة من الغرفة !

وعلل (فاجنونسى) الغافل خروجها بأنه ناتج عن « الحياء » .. فلم يجرحه فعلها بل دغدغ زهوه !

وما أن صار وحيداً مع الأم حتى ابتدرته هى : « خيراً ! ماذا هناك ؟ » .. فتلوى (فاجنوتسى) فى كرسيه بعصبية ، ويداه بين ساقيه ، وقال متلعثماً : « مدام .. مدام .. هناك أشياء يصعب جداً قولها ! » .

فقالت الأرملة وقد كونت فكرتها واستخلصت ما عنده : « أى أشياء ؟ » .. ثم أضافت بهدوء وهى تشد الخيط من كرة الصوف وتبدأ فى تحريك إبرة التريكو : « ألعلك غير راض عن الطعام ؟ » .

فاحتج (فاجنوتسى) كما لو كان قد مسه رعب : « عفواً ! ..

بل إنى أجد هنا كل راحة ، وما أكلت فى حياتى طعاماً أشهى من هذا .. لا تظنى ، أرجوك .. » .

— لعلها إذن الحجرة التى لا تعجبك ؟! هل ترغب فى تغيير الحجرة ؟

فأخذ رأسه بين يديه الاثنتين ، وهتف تائهاً ، يائساً : « كلا ، يا مدام .. كلا ، مطلقاً ! » .

لكن الأم التى كانت تتسلى ، استمرت : « إذن فلا بد أنك ستعلن لى نبأ قرب رحيلك ، ولسوف يضايقنا ذلك ، أنا وجيا .. فلقد ألفناك ! » .

فقال متوسلا ، مناشداً : « بل إن الأمر يتعلق بشيء سعيد .. لى على الأقل ! » .

وقالت الأم دون أن ترفع عينيها عن شغل إبرتها : « فى هذه الحالة سوف أسر من أجلك .. تشجع إذن وقص الأمر على » .

وعندئذ ضحك (فاجنونسى) ضحكة عصبية وصاح وهو غير مستقر فى مقعده ، كأنما لم يعد يقوى على أن يظل مستريحاً : « ليته لم يكن يلزمنى غير الشجاعة ! » .

كان يبدو عليه أنه محموم .. لكنه ، فجأة ، حزم أمره ، فقبض بيد صلبة على ذراع الأرملة وهو يقول لها بصوت شديد الخفوت : « ما قولك إذا سألتك يد ابنتك ؟ سترفضين ، هيه !.. ستهزئين بى ؟! » .

وضعت مدام فوريزى شغلها جانباً ، وألقت برأسها إلى الوراء .. ثم تفرست فى الرجل القلق المنحنى نحوها ، وقالت بهدوء : « لست أملك أن أقول شيئاً ، أنا .. إذ يلتزم أن نعرف رأى ابنتى .. » .

وملأت هذه « الإنابة » أعطاف (فاجنوتسى) فرحاً .. فهتف ، كغير المصدق : « إذن فليس لديك ، شخصياً ، أى اعتراض ؟!.. هل أنت مستعدة أن تحدثى ابنتك فى الأمر ؟ » .

– ولم لا ؟

– فى الحال ؟

– فى الحال .

فنهض (فاجنوتسى) مضطرباً ، وإن يكن راضياً ، ودار حول المائدة وهو يقفز ويدعك يديه .. صائحاً : « مدام ! مدام !.. لن تصدقينى ، لكن القلق يصيبنى بالحمى .. فالمرء لا يتخذ زوجة فى كل يوم ! » .

وكانت هـذه الكلمات مصحوبة بضحكة صغيرة ، جافة ، عصبية .. ثم استطرد الأستاذ : « أنا شاعر بخطورة خطوتى .. فما فكرت قط من قبل فى تأسيس أسرة .. إنها فكرة خطرت لى على حين غرة ! .. هل تستطيعين تصورى متزوجاً ، ولى أطفال ؟ » .

... وضحك من جديد ، ثم توقف لينظر إلى مدام فوريزى : « هل تتصورينى هكذا حقاً ؟ .. لا شىء يدفعنى إلى الضحك مثل هذه الفكرة !.. وابنتك ، ماذا هى قائلة ؟ » .

فأجابت الأرملة ، التى كانت تتأمله طيلة الوقت وقد بدا عليها التفكير : « هدئ من روعك .. إن ابنتى سوف تجيبك بـ « نعم » أو « لا » ! » .

فوثب (فاجنوتسى) وقد تقلص وجهه فى تقطيبة غريبة : « بلا شك : « نعم » أو « لا » .. كلمتان صغيرتان : « نعم » و « لا » .. هذا فى نظرك شىء بسيط .. ولكن ما العمل إذا لاذت بالصمت عن لا و نعم ؟! » :

غير أن الأم الجادة الحائرة لم تبتسم ، وإنما أجابته : « فى الانتظار :. لست أعرف شيئاً عنك يا بروفسور .. لست أعرف شيئاً عن عائلتك ، ولا عن مركزك .. اجلس بالقرب منى وحدثنى عن نفسك قليلا » .

فاندفع (فاجنوتسى) : « وكيف لا يا مدام فوريزى العزيزة جداً ؟ معذرة .. » .

وجلس فى مواجهتها وبدأ يؤدى « واجب » تزويدها بجميع التفصيلات المنشودة : إنه يتيم الأب والأم ، وابن وحيد ، ميسور الحال – إن لم يقل إنه غنى – يملك فى روما عدة عمارات ذات إيراد طيب .. ثم بدأ يسهب فى بند الوظيفة ، فدخل فى تفصيلات لانهائية ، مشوشة ، لبعض المؤامرات الجامعية المدبرة ضده ، والتى لن يتأخر طويلا انتصاره عليها بفضل كتاب يعكف عليه منذ سنوات ، وسوف يحدث ضجة عند نشره فى القريب العاجل ! .. وأوغل

(الأستاذ) فى هذا الموضوع ، حتى لقد أحضر للمرأة من حجرته حزمة من أصول الطبع مليئة بالأرقام والمعادلات والرسوم !.. وهو يؤكد لها ، فى غير تواضع – ولا زهو ! – وإنما ببساطة تامة ، كأمر جلى ، أنه كتاب مقدر له أن يحدث ثورة فى دنيا علم الطبيعة الحديث ، وأن يضمن له كرسياً فى جامعة روما !

... وكان يتفزز وهو يتكلم ، عاجزاً عن قمع حركاته العصبية ، رغم أن واجبه كان يقتضيه – كى يظفر بالثقة – أن يبدو جاداً ، هادئاً .. ورغم أن مدام فوريزى لم يكن فى وسعها فهم «الاستراتيجية» الجامعية ، أو تقدير قيمة الأوراق المطبوعة التى كان البروفسور يعرضها تحت أنفها .. إلا أنها لمست بالبداهة أن وراء هذه العصبية وهذه الأطوار الغريبة شيئاً حقيقياً ، جدياً ، له أهمية من الصعب تقديرها .. وبينما كان هو مسترسلا فى اهتياجه المتزايد ، يائساً من إقناعها بقيمته الشخصية ، كانت هى قد تم اقتناعها بأن هذه «الصفقة» تفوق كل ما جرؤت على أن تؤمله !

ولكن بقى أن (فاجنوتسى) – إلى جانب مظهره الزرى وضآلة حظه من وسامة الشباب – لم يكن ينتمى إلى ذلك العالم المتألق النبيل الذى طمحت إليه هى وابنتها طوال حياتهما !.. ذلك هو العائق الشديد الخطورة الذى وهنت أمامه كل حكمة المرأة المجربة ، بل الذى اعتبرته عقبة يكاد يكون من المستحيل تخطيها !.. على أنها لم تكن ، رغم ذلك الولع الجنونى الهادئ بالعظمة ، من البلاهة بحيث

لا ترى أن هذا الطلب من (فاجنوتسى) فى مثل ظروفها هى وابنتها لا يمكن أن يزدرى أو يهمل ، فإن الخاطبين الذين تقدموا حتى الآن إلى (جيا) كانوا رجالا متقدمين فى السن من أصحاب الحوانيت المعروفين فى المدينة ، ممن أرادوا فى بيوتهم فتاة فقيرة منكسرة ، ألفت إنفاق القليل ، وإن كانت فى الوقت نفسه حسنة التربية ، ترفع من قدرهم فى نظر مواطنيهم .. فإذا قورن (فاجنوتسى) بهؤلاء ، فإن الأعمى يسعه أن يرى فيه «صفقة» طيبة !

ووجدت الأم من واجبها أن تجيب الأستاذ بكلمات حذرة غير قاطعة ، دون أن تعد بشيء – ولكن دون أن تجزم أيضاً بالرفض ! – ثم نصحته فى النهاية بأن يذهب لينام ؛ فلسوف تتحدث فى الأمر مع ابنتها .. وسيعرف الجواب فى الغد !

الفصل الخامس

• عندما انسحب (فاجنوتسى) ، بعد الكثير من التوسلات والتوصيات ، لبثت الأرملة فى مجلسها إلى المائدة الخالية ، ويداها على ركبتيها ، وعيناها ثابتتان على نور المصباح .

كانت تفكر !

تفكر فى حياتها الخاصة — المنتهية منذ الآن — وفى حياة ابنتها التى تكاد تبدأ ..

ولم يكن تفكيرها من قبيل الندم على أخطائها — التى التمعت فى ذاكرتها الآن على ضوء جديد ، واضح المغزى — ولا كان هذا التفكير منصباً على وجوب منع ابنتها من ارتكاب أخطاء مشابهة .. وإنما كان تفكيرها بمثابة « رثاء » لآمال ابنتها البلهاء !

إنها ما ندمت قط على أخطائها ، بل كانت دائماً متعلقة بها ، كما لو كانت هى وقود حياتها الفريد !.. فى شبابها كان الباعث على ندمها أنها لم تكن قادرة على ارتكاب أخطاء معينة .. واليوم كان مبعث مرارتها القاسية اكتشافها أن ابنتها بدورها ستضطر لأن تتنازل عن تلك الأخطاء !.. وملأها هذا الاكتشاف إحساساً بالأسى ، والعجز ، والذهول .. كما يحدث حين يجد المرء نفسه وجهاً لوجه أمام ظلم صارخ ، غير مفهوم ، يلقى فى روعه أنه عاش حياته عبثاً ، وعانى ماعانى.. بغير جدوى !.. كانت الأم قد عاشت ، وأذعنت ،

وضحت إلى اليوم ، مسوقة بأمل واحد — يشبه ما يتمناه الشخص لابنه من أمجاد عسكرية أو سياسية — ذلك هو أن ترى ابنتها عروساً تائهة فى المجتمع ، دمية اجتماعية ، عابدة مال ، مزهوة ، أنانية ، وفاسدة حتى نخاعها !.. لذلك فهى اليوم حزينة لأن (جيا) لن تتزوج إلا رجلا من طراز (فاجنوتسى) !.. بل إنها لتكاد تحس بالحاجة إلى أن تستغفر ابنتها ، فقد نشأتها على أمان ووعود !.. ومن ثم وجدت مدام فوريزى نفسها — لأول مرة فى حياتها — تفكر فى الموت بمرارة ، كما تفكر فيه العقول « الضريرة » التافهة التى ترى فيه آخر شقاواتها التى لا تستحقها .. وأشدها سواداً !

وأخيراً نهضت الأم ، فأطفأت المصباح .. وقصدت إلى (جيا) فى حجرتها !

* * *

• جلست مدام فوريزى عند قدم السرير ، وبدأت تقص أمر حديثها مع البروفيسور .. فأصغت إليها (جيا) وهى راقدة ، فى جمود وتقزز ، وعينها إلى أظافرها .. حتى إذا ما انتهت الأم من قصها قالت الابنة :

— إنه مجنون !.. ولأهون على أن أدخل الدير من أن أتزوجه !

فأطالت أمها النظر إليها ، دون أن تفتح فمها . كانت مضطربة ، لا تقوى على منع نفسها من مشاركة (جيا) فى ازدرائها لخاطبها ، لكنها فى الوقت نفسه كانت ترى أن هذا الطلب ينبغى أن لا يرفض

تماماً .. ومن هنا غامرت بمعارضة ابنتها ، ومحاولة تزيين الأمر لها ، فالرجل غنى .. و ..

لكن (جيا) هزت كتفيها بازدراء ، وأجابتها : « ذلك المهووس الهزيل !؟ .. لن أتزوجه ولو وزن بالذهب ! » .

... كانت تتكلم فى هدوء ، وبغير ضغينة ، ولكن كان من الواضح أنها ترفض مجرد بحث الموضوع !.. ولقد أدهش هذا الهدوء أمها أكثر مما لو كانت قد ثارت ثورة عنيفة .. فحاولت الأم — بكل حيطة — أن تقترح عليها أن تلاطف (فاجنوتسى) بعض الملاطفة ، فهو المرشح الوحيد فى الوقت الحاضر ، على كل حال !.. لكن (جيا) ابتسمت ابتسامة مترفعة ، وقالت : « أما عن المرشحين ، فعندى من هو أحسن ! » .

وبحركة متعالية أخرجت من درج منضدتها الليلية أربعة خطابات أو خمسة من بريد (باولو) ، وألقت بها فوق السرير .. فى وجه أمها !

وكأنما صعقت الأرملة التى لم تكن تعرف شيئاً عن تلك الرسائل ، فلم تجرؤ على لمسها — لأن رؤيتها كانت فى ذاتها حدثاً كبيراً ! — وعادت تلح من جديد ، مكررة أن من الخطأ رفض (فاجنوتسى) رفضاً باتاً !.. وكانت تلح بنشاط فريد وغير معهود منها ، هى التى كانت دائماً مذعنة لإرادة ابنتها !.. فماذا يكلف (جيا) أن تقول إنها تريد أن تفكر ؟ لا شىء .. وهكذا تحتفظ

بـ (فاجنوتسى) فى متناول يدها ، كما تحتفظ بطبق من الطعام ساخناً !

واكتفت (جيا) ، فى عدم اكتراثها المطلق بخاطبها السيىء الحظ ، بأن تجيب أمها : « لامانع عندى ، فتصرفى كما تشائين ! » .

وكانت قد استردت الرسائل فى يدها وجعلت تعيد قراءة فقرات منها باهتمام ، راض ، وواضح .. فنظرت إليها أمها وهى تقرأ ، ثم نهضت متنهدة وتمنت لها نوماً طيباً .. وغادرت الحجرة . أما الفتاة فلم تكد ترد تحية أمها !

* * *

● وفى اليوم التالى أقبل (فاجنوتسى) مرتجفاً يطلب الرد الموعود !.. فأجابته مدام فوريزى ، كما قررت بالاتفاق مع (جيا) ، برد مبهم غير محدد : فابنتها تريد أن تفكر فى الأمر ، وهى تشكره كثيراً .. لكنها تسأله ، فى الوقت الحاضر ، أن ينتظر ..!

وكان يخشى رفضاً باتاً ، فرحب بهذا الاتجاه ، بحرارة .. فلتفكرا على مهل ، فلتفكرا أطول مدة تريدانها .. فلا غضاضة عليهما فى الحيطة ، فى مثل هذا الأمر الدقيق !.. وأوصته مدام فوريزى — كى تجنب (جيا) إلحاح عواطفه المتدفقة ، الذى قد يثير فيها صراحة خطرة — أن يتجنب أى تلميح إلى هذا الموضوع فى كلامه مع (جيا) ، وأن يدع الوقت يفعل فعله ، فبعض

الأمور يحسن عدم التعجل فيها .. وذات يوم جميل ، عندما تكون (جيما) قد ألفت فكرة الزواج منه ، سيتأتى الرد الذى يتمناه !.. ووافق (فاجنوتسى) على هذه النصيحة أيضاً ، بنفس الحماسة العصبية .. بل إنه أراق على (جيما) بعد ذلك احتراماً مليئاً بالتحفظ ، إن لم يكن بالبرود .. ولو أنه كان فى غيابها يمعن فى التهافت على أمها ، وتوصيتها بنفسه ، والتوسل إليها !.. وكانت مدام فوريزى تشجعه مرة ، وتثبط همته مرة أخرى ، كى تحتفظ به – كما قالت لابنتها – رهن إشارتها وفى متناول يدها ، يتلظى على نار الرجاء الخجول والقلق المفضوح !

وبين هذه المناورات وهذه الخدع .. مر الشتاء !

الفصل السادس

● ظـــل الطقس قارس البرد فى تلك البلدة المرتفعة طيلة شهر مارس ، ثم هطل المطر خـــلال شهر أبريل .. وأخيراً أقبل مايو تهب من أعطافه نسمات الربيع المنعشة .. وإذا الريح التى كانت تصفر حول جـدران المدينة قد فقدت صقيعها واكتسبت دفئاً ، فاندفعت فى وفرة عبر السماء تطرد سحباً كبيرة بيضاء ، وتنفخ ستائر النوافذ المفتوحة إلى أقصى مداها .. وقد ملأت الفضـاء ، لا بصرخات وأنات ممزقة ، بل بصفير طويل واهن ، كما لو كانت مضناة مهزومة ، قد أعياها فتور الفصل الجـديد الوافد فى أعقاب الشتاء ..

وكانت هذه الفترة من أسعد الفترات فى حياة (جيما) . كانت كل يوم – قرب الظهر ، وفى المساء ، ساعة النزهة – تذهب إلى أقصى المدينة حتى تبلغ مرتفعاً يشرف البصر منه على السهل المترامى حتى القمم الزرقاء التى ينطبق عندها الأفق ، وهناك كانت تتملى من المنظر الفسيح وتتأمل المنطقة التى تضم ضيعة أصدقائها :: وكان مرتفع من الأرض يخفى غابة القرو التى التقت فيها بـ (باولو) ، وعلى سفوح التـلال كانت أشجـار الزيتون السمراء تخفى الطرقات التى طالما تنزها فيها معاً !.. وكانت ، فى وقفتها تلك ، تسند يديها على حاجز المرتفع وتتظاهر – كى لا تجذب إليها اهتمام من يعرفها –

بأنها تتأمل قطاعاً من تفصيلات المنظر ، كالدخان الأبيض لقطار عابر وراء صف من الأشجار ، أو أشكال السحب المتغيرة ، أو سيارة ركاب ترقى طريق الخندق .. لكن نظرها كان يتجه برغمها إلى موضع (الفيلا) التى فى الضيعة ، فتمضى تحدث نفسها بأن حياتها ستتقرر بعد نحو شهر ، وأنها بعد أن ذاقت الفاقة والضنى كل ذلك الزمن سوف « تعيش » أخيراً !.. فقد أخذ الحظ يبتسم لها ويلاطفها ، كما تبتسم لها هذه السماء ، والشمس ، وهذا السهل الجميل الخصب !

* * *

● وفى تلك الأيام استمتعت لأول مرة بأشياء كان ذهنها المتكبر الساخط قد عاقها عن أن تقدرها حق قدرها ، بل عن أن تراها : من ذلك مفاتن الطبيعة ، ومسرات الحياة اليومية — التى ما عرفتها يوماً ! — كما استطاع الرجاء فى أن تنعم بأيام أسعد من أيامها الماضية ، أن يلطف من جفوتها البلهاء الفظة التى يتصف بها الطموح المغرور دائماً ، فتنزل هذه الجفوة عن مكانها لحالة مختلفة من التهيؤ النفسى ، وتتفتح نفس الفتاة للمشاعر الهنيئة .. ولأول مرة أحست (جيا) أنها تعيش فى استسلام ، بغير تفكير ولا تدبير .. ولا أكاذيب !

لكنها ، ذات يوم — قرب نهاية الشهر — عادت من نزهتها المسائية المعتادة ، فوجدت أمها تدور فى البيت فى اضطراب وقلق ،

وقد برز من جيب مرولتها طرف مظروف ممزق .. وما أن رأت ابنتها حتى أشارت إليها أن تتبعها .. وذهبتا إلى حجرة (جيا) ، وهناك أجلست مدام فوريزى ابنتها على السرير وتناولت يديها ، وهى تنظر إليها طويلا فى سكون ، وفى مواساة متألمة ، وأخيراً قالت :

— يا صغيرتى (جيا) ، هيئى نفسك لنبأ سيء !

فلهثت دقات قلب (جيا) لهذه الكلمات ، وفكرت فى (باولو) ، فشحب لونها ، وأحست أنها على وشك الإغماء .. لكنها تحاملت على نفسها فسألت : « أى نبأ ؟ » :

— تلقيت رسالة من ن — (اسم صاحب العزبة) — يقول فيها إنه يأسف لأنه لن يستطيع استقبالك فى هذا الصيف .. سيكون فى وسعك أن ترى (آنا) و (لويز) ، وتريانك ، ولكن ذلك لن يكون فى العزبة بعد الآن !

وصاحت (جيا) : « كيف !.. وهل لن يقتصر ذلك أيضاً على هذه السنة وحدها ؟ .. هل سيسرى على السنوات القادمة كذلك ؟ » .

— أجل . يقول إنه يحسن أن لا تعودى إلى هناك مرة أخرى !

وكانت الأرملة تتوقع أن ترى ابنتها تنهار باكية تحت وطأة هذا الإقصاء ، بل كانت تكاد تتمنى ذلك — فإن الألم الشاكى المذعن كان يلائم خططها خيراً من سواه — لكن (جيا) لم تكن

ذات طبع ضعيف ، وكانت قوتها العاطفية تستبعد الدموع وتجنح بها إلى الاستنكار والغضب .. فلم تلبث طويلا مصعوقة بدهشتها وإنما انتزعت نفسها فجأة من قبلات أمها المواسية وقفزت على قدميها ، صائحة فى غضبة هادرة :

– أنا أعرف تفسير كل هذا ، إنه بسبب (باولو) !.. قولى الحقيقة .. إنهم بسبب (باولو) لم يعودوا يريدون رؤيتى !

– أجل يا (جيا) ، كل ذلك بسببه .. ولكن ما جدوى أن تضيقى بالأمر ؟.. أليس أولى من هذا أن..

فلم تدعها ابنتها تتم قولها ، بل قاطعتها : « إن الأب لا يعتبرنى جديرة بأن أدخل فى أسرته !.. بأن أغدو زوجة ابنه !.. طبعاً ! من دواعى شقائى أنى أحمل اسم فوريزى ، فوق أنى بلا مال ، فلو كنت ابنة رجل من رجال الصناعة فى (ميلانو) ، لاختفت قصة أصلى ومحتدى هذه ، كأنما بسحر ساحر !.. لكن كل جريمتى أنى لست غنية ، ولا نبيلة ! » .

كانت الفتاة قد أطلقت العنان لمشاعرها المنبعثة من كرامتها الجريحة وكبريائها المدحورة ، وكانت وهى تتكلم تروح وتجىء فى حجرتها بخطوات عصبية ، من ساقيها الطويلتين الرشيقتين ، ثم تتوقف وقد ضمت قبضتيها وضربت الأرض بكعبيها !.. وكانت أمها تتأملها فى سكون وهى جالسة على السرير ، مفعمة النفس بالشفقة عليها ، وبشىء من الارتياح مبعثه أملها فى أن تنفس ابنتها

عن كربها وحنقها بهذه الصرخات وهذا اللوم العاجز ، دون أن يتعدى الأمر ذلك إلى نتائج أخرى !.. ثم سألتها فى النهاية :

– وماذا أنت فاعلة الآن يا (جيا) ؟ لا مفر من ..

– هراء !

قالتها البنت وانتصبت أمام أمها صائحة : « إنى أهزأ بهم وبدارهم ومدعويهم ! .. ولكن (باولو) شىء آخر . ليفعلوا ما بدا لهم ، ولكن ليبتعدوا عن (باولو) .. فنحن راشدان ، هو وأنا ، وسنتزوج رغم أنف كل من يريدون بنا سوءاً .. أقسم لك على هذا !

– ولكن يا صغيرتى المسكينة ، ماذا فى وسعك أن تفعلى ؟

وهنا لم تعد (جيا) تتكلم ، بل تصرخ : « ماذا أفعل ؟ سأفعل أبسط شىء يمكن تصوره .. سأكتب إلى (باولو) أن يحضر فى الحال ، وأطلعه على ما بلغته الأمور ، وسيرى هو أن الحق فى جانبى ، وبذلك لن تمضى خمسة عشر يوماً على الأكثر حتى نكون قد تزوجنا ! » .

وثب إلى قلب مدام فوريزى خوف مفاجىء ، فلقد كان فى الرسالة التى تلقتها تلميح واضح من الأب إلى رغبة ابنه فى الزواج من (جيا) ، إذ جاءه فأنبأه بأنه يحبها وأنه قد قرر الزواج منها .. فما من وسيلة شريفة تسمح له أن يخلص بها نفسه غير الزواج .. وكانت (جيا) تجهل قرار (باولو) هذا ، فهى قد تحدثت عنه بهذه اللهجة من قبيل التحدى ، وليس عن علم : لكن أمها كانت

بدورها تجهل هذا ، فتولاها الرعب من أن تكون ابنتها قادرة على تنفيذ مشروعها الجرئ .. وقالت فجأة : « عديني أنك لن تفعلي شيئاً من هذا القبيل ، وأنك ستكفين عن الكتابة إليه .. » .

فقالت (جيا) بصراحة : « أنا ؟ هذا لن يكون أبداً .. أأرضى بالهزيمة ، كي لا ألوث اسمهم السامي ؟.. وأعامل كخادمة ؟ .. لست مجنونة .. واعلمي أني سأكتب له هذا المساء ! » .

– وماذا تقولين له ؟

– إنني أرغب في أن أكلمه ، وأن يحضر في الحال !

والتقت أعينهما لحظة في سكون ، وكانت الأم تهز رأسها في هدوء حزين ، وتوسل صامت .. ثم تنهدت وجذبت ابنتها إلى جانبها قائلة : « صغيرتي (جيا) ، تعالى هنا واسمعيني .. هناك دوافع جدية ، غير هذه التي تفترضينها ، تجعل هذا الزواج مستحيلا !.. فإن كنت تضمرين لي حباً فتنازلي عن سؤالي عنها وافعلي ما أقوله لك .. » .

ولم تفت (جيا) لهجة أمها الخطيرة ، لكنها في عنادها استروحت شركاً ، فلم تشأ أن تستسلم : « لست أرى مانعاً غير الذي قلته ، والليلة سأكتب له ! » .

وحاولت الأم ، دون أن تتمسك بأهداب أمل واهم ، أن تناشد عاطفة البنوة في الفتاة ، فقالت : « جيا ! هذا الذي تعتزمينه يسبب لي حزناً شديداً .. » .

لكن (جيا) قاطعتها في حدة : « إني أفضل أن أسبب لك حزناً شديداً كما تقولين ، على أن أذعن دون أن أعرف لذلك سبباً ! » .

– هناك سبب !

– إذن فاذكريه !

لم تدر الأم كيف تتنصل من هذا الإحراج القاطع ، فسكتت ونكست رأسها .. وإذ ذاك أردفت (جيا) في رقة مواسية : « أترين يا أماه ، إنك أنت التي تتراجعين ، في اللحظة التي تتطلب منك على العكس تشدداً وصلابة !.. فلترهم أننا أنداد لهم ! » .

لم يبد على الأم أنها فهمت ، أو حتى أنها كانت تصغى !.. فإن نظرتها إلى ابنتها كانت نظرة مواربة مترددة .. لكن هذه الكلمات الأخيرة جعلتها تحزم أمرها : فرفعت رأسها ، وقد لمعت عيناها الجريئتان كما تلمعان في أسعد لحظاتها ، وقالت بغتة :

– أنت على الأقل ند لهم ، ما دام دمهم يجري في عروقك !

فسألت (جيا) في ذهول : « ماذا تعنين ؟ » .

فبدت على الأم هيئة من تفشي سراً ، في زهو وتفاخر – كما لو كان إفضاؤها بسرها يبرر عندها خروجها على حياء الأمومة – وشرعت تقول : « عندما كنت بنتاً – قبل زواجي من (فوريزي) – تبادلنا الحب أنا ووالد (باولو) .. وقد ولدت أنت كثمرة لهذا الحب .. فأنت ابنة ذلك الثرى ، شأنك شأن (آنا) و (لويز) !..

وما تصورت أن يعشقك (باولو) ، وإلا كنت نبهتك .. والآن ، هل فهمت لماذا لا يمكن إتمام هذا الزواج ؟ » .

كان غضب (جيا) قد زايلها .. لكن دهشتها جعلتها ترتاب فى أنها أحسنت السمع .. فهتفت منكرة :

– باولو وأنا .. أخ وأخت ؟

– هو هذا !

وكما روت الأم قصتها دون خزى ولا أسى ، وإنما بلهجة الرضى عن الماضى ! .. كذلك عجزت (جيا) عن أن تحس الفاجعة فى تلك السقطة التى جعلتها تنظر إلى أخيها بعين (الخطيبة) ! .. ولو أنها كانت عاشقة حقاً لهالها الأمر .. لكنها ، فى طموحها الوصولى ، لم تكن العاطفة التى تملكتها إلا من قبيل زهو الغرور ! .. فلقد تمثل لها (باولو) كأداة تحقق لها حلم الحياة المترفة ، فكان ذلك ما أنقذها اليوم من عذاب الصدمة التى كان مفروضاً أن تصيب عاطفتها العارمة اليائسة لو أنها كانت عاطفة صادقة ! .. بل ولم يصدم إحساسها ما انطوى عليه اعتراف أمها من تجاوز لمشاعر الأمومة .. ولا خطر لها أن شقاءها لم يكن راجعاً إلى القدر المحتوم ، وإنما كانت هى التى استثارته بأنانية المرأة اللعوب ! .. كل الذى بقى فى نفسها بعد انقضاء لحظة الدهشة الأولى كان الإحساس الغامر بالظلم ، والأسف العنيد المر ! .. بل إنها – دون أن تعترف بذلك لنفسها – كادت تأسف على أن ذلك الزواج لم يتم قبل أن تقف على

أمر تلك القرابة غير المتوقعة .. فإنها و (باولو) كانا قمينين عندئذ أن ينفصلا – بعد عشرتهما القصيرة – نزولا على حكم الأخوة .. لكنها كانت ستظل فى نظر العالم امرأته ، وهذا هو ما يهمها ! .. وبينما كانت فتاة غيرها تتنفس الصعداء ، فى ارتياح مذعور ، لنجاتها من الخطر البشع الذى تعرضت له ، وأفلتت منه .. لم تكن هى – (جيا) – ترى فى هذا الإفلات إلا « كارثة » اجتماعية ، أفقدتها كل شىء : الدار التى فى الضيعة ، والضيوف المترفين ، والصداقات التى تشبع الزهو ، والحفلات ، والحياة الناعمة السهلة .. فإن كل ذلك قد ضاع منها !

واغرورقت عيناها بالدموع ، وإذ حاولت أمها أن تعزيها ، أشارت إليها كى تصمت ، ثم نكست رأسها طويلا وهى تبكى فى منديلها .. وأحياناً كانت تند عنها تنهيدة عميقة ، وكأن شيئاً فيها يتمزق ، ثم تعود فتصعد إلى عينيها دموع جديدة غزيرة .. دموع كان ينساب فيها كل قلقها ، وغرورها ، ومطامحها ، ورغباتها – كل ما تمنته فى هذا العهد الأخير أو كبتته ! – كما تندفع الرياح العاتية عندما تهب العاصفة ..

وأخيراً رفعت رأسها ، فإذا وجهها النحيل المتوقد قد جفت عيناه .. وقالت أمها ، التى كانت قد انتظرت هذه اللحظة بصبر نافذ : « ليست هذه بأشياء محببة إلى السمع ، ولكن ما الحيلة يا صغيرتى (جيا) ؟ .. أنا أيضاً ، فى زمانى .. » .

وكانت تبغى الاستمرار فى تضمين مواساتها المتعلقة لابنتها ، مزيداً من الاعترافات والذكريات المتخلفة عن حبها الغابر .. لو لم تقاطعها (جيا) ، مدفوعة بالسأم أكثر منها بالإحساس بالكرامة :

– لنكف عن هذا الحديث يا أماه !

وما كان هذا النهى القاطع ليروق مدام فوريزى ، فلقد عاشت ثلاثين عاماً فى انتظار هذه اللحظة العذبة التى تسترجع فيها ، بصوت مسموع ، وبعد طول الصمت ، أعز أخطائها .. فلما حلت هذه اللحظة أخيراً ، سئلت أن تنزل عنها .. وتعود إلى الصمت !.. إذن فمتى – بعد تفويت هذه الفرصة – تستطيع أن تتكلم ، ولمن ، إذا كانت ابنتها تأبى الاستماع إليها ؟!.. وما جدوى الحياة إذن بعد هذا ؟!

ومع ذلك فقد أذعنت ، فلاذت بالصمت .. مخفية ارتباكها بالتظاهر بترتيب بضعة أشياء دقيقة على منضدة ابنتها .. ولكن لم تمض لحظات حتى عاودها ، فغلبها الحنين إلى قصة حياتها من جديد .. فإذا بها تقول ، كالحالمة :

– كان يحبنى ، ويبغى الزواج منى .. لكن أسرته أصرت على الرفض !

وظلت (جيا) جامدة لا تجيب !

... واستمرت الأم وقد شجعها هذا السكوت : « ليس فى الأمر ما يخزيك ، فدمهم يجرى فى عروقك ، وكان من حقك



ثم نكست رأسها طويلاً وهى تبكى فى منديلها ..

أن تحملى اسمهم :: ولكن ، سترين ، سوف يدعونك فى السنة القادمة ! ».

... وكان ذلك فوق ما تحتمل (جيا) ، فقد كان الموقف – فيا أحست – مفعماً بالسخرية .. فصاحت غاضبة وهى تقفز من سريرها :

– اصمتى !.. لقد رجوتك أن لا تعودى إلى هذا الحديث .. ليتك تدعينى بمفردى !

وفى ارتباك ، ومذلة ، وإذعان لواجب الصمت النهائى .. طبعت الأم قبلة على خد ابنتها المتشنجة ، النافذة الصبر .. وخرجت مندفعة من الغرفة !

* * *

الفصل السابع

● لم يحمل الليل إلى (جيا) نصحاً ، كما يقول المثل العامى .. بل إن النوم استعصى عليها وقتاً طويلا ، فظلت مفتوحة العينين ، تحدق فى الظلام ، وتفكر .. وكلما خطر لها المستقبل ، انقبض قلبها فى ذعر كالذى يداخل المرء إذا مست يده جسداً ميتاً !

لقد مات الطموح الذى اعتاد من قبل أن يضفى على أيامها المقبلة – فى خيالها – ألواناً ضاحكة . وما عاد الزمن يبشرها بغير صور جرداء ، لا تستشعر إزاءها شيئاً من الفضول الباعث على الاهتمام ، ولا رغبة فى المضى إلى الأمام ، فكانت كأولئك المرضى الذين إذا ما أبصروا مكاناً أو فضاء فسيحاً أمامهم ، أحسوا بركبهم تتخاذل تحتهم !.. بل إنها أحست اشمئزازاً لا قبل لها به ، ورغبة مخبولة فى الفرار .. فى الرجوع إلى الوراء .. لا إلى السنوات القريبة – على مافيها من شقاء – وإنما إلى تلك السنين الأبعد منالا .. سنى الطفولة .. تلك الحقبة التى لم تكن قد وعت فيها بعد نفسها ، ولا دنياها !

ولقد أدركت هزيمتها واعترفت بها ، بيد أنها تاهت عن تفهم سر تعاستها ، والاهتداء إلى القوى التى خلقت هذه التعاسة !.. بل لقد عز عليها أن تفهم حياتها نفسها ، فكرهت هذه الحياة ونبذتها طواعية !

وعلى هذا اليأس نامت .. وعليه صحت فى اليوم التالى ، حين

جاءت أمها توقظها كعادتها ، قائلة بلطف وهى تتقدم فى ظلمة الحجرة : « هيا ، انهضى .. فإن (فاجنوتسى) فى انتظارك ، ليصحبك فى نزهة » .

لكنها لم تتحرك .. وتذكرت وهى تدس أنفها فى الوسادة أن اليوم (الأحد) ، وأنها كانت قد وعدت (فاجنوتسى) وأحد أصدقائه بأن تصحبهما فى جولة فى الضواحى .. وذكرها اسم (فاجنوتسى) بطائفة من أمور أخرى غامضة ، وكما تفعل المريضة إذ تعاودها عند اليقظة آلام الأمس ، فتمد يدها إلى الدواء الذى يسكن ألمها ويردها إلى النوم ، عمدت (جيا) إلى قرار حاسم دون ما تردد ، فقالت لأمها فى بطء وصوت مثقل : « اذهبى فقولى له إننى متعبة ، ولن أخرج للنزهة اليوم .. وقولى له أيضاً إننى أقبل عرضه ، وإننى مستعدة لأن أغدو زوجته ، فى أقرب وقت ممكن ! » .

فقالت الأم مشدوهة : « كيف ؟ » .

فرددت (جيا) قولها : « قولى له إننى مستعدة للزواج منه » .. ثم أغمضت عينيها !

– أجادة فى حديثك ؟

فأجابت فى تنهد : « كل الجد ! » .. ثم أضافت متسائلة بصوت أقوى ، بادى الانفعال : « أفهمت ؟ » .

– حسن ! حسن ! سأقول له هذا فى الحال :

– اذهبى إذن ودعينى أنام .

واستدارت نحو الحائط ، وما لبثت أن راحت فى سبات عميق !



• وعندما استيقظت ثانية ، كان الوقت ظهراً . وإذ تذكرت الأمر الذى ألقته إلى أمها ، ارتاحت إلى أنها اتخذت قرارها هذا دون ما تفكير ، وهى نصف نائمة ! فلقد أصبح (فاجنوتسى) يعادل أى شخص آخر سواه ، ما دامت قد فقدت الأمل ولم يعد لها رجاء فى شيء .. وإذ رسخت هذه الفكرة فى رأسها ، نهضت متأهبة للقاء الأول مع خطيبها !

ووجدت (فاجنوتسى) فى قاعة الطعام .. وقد عدل عن نزهته إذ علم بالنبأ العظيم ، فظل جالساً إلى المائدة ثلاث ساعات لا يحير حراكاً ، ولا يحول بصره عن باب حجرتها ! .. فلما رآها ، نهض ، ونزع نظارته عن عينيه ، وسألها متلعثماً عما إذا كانت قد قبلت حقاً أن تكون زوجته ؟.. وكأنما كانت (جيا) تبصره للمرة الأولى ، فأحست لفورها باشمئزاز إذ رأته أمامها : أصفر ، أصلع ، مهزولا ! .. أهذا إذن هو الرجل الذى سيغدو رفيق حياتها ، طوال العمر ؟.. ولم تتمالك أن فكرت فى مغزى ذلك ، مستنكرة ، مستبشعة ، بيد أنها سرعان ما سيطرت على نفسها ، وفرضت على ملامحها هدوءاً ماكان أبعدها عن الإحساس به ! .. ثم ردت عن سؤاله بالإيجاب ، فأفاض (فاجنوتسى) ، فى ارتباك ، يشرح المشاعر التى أوحتها إليه تلك الدقيقة المباركة : كان سعيداً ، بل إنه ما كان

ليصدق وجود مثل هذه السعادة ، فقد كان يدرك أنه غير أهل للفتاة .. كان من العسير عليه أن يصدق أنهما سيرتبطان عما قريب برباط الزواج !.. وكان مظهره المعتاد – بما فيه من غرابة ومن اصطناع – ينهار تحت وطأة انفعاله ، فيكشف عن دنيا مفعمة بالعواطف ، شاعرية ، عتيقة ، كانت كامنة فى نفسه !.. كان يبدو أنه لم يكن على علاقة قط بالنساء ، وأنه ورث عن وسط عائلى متخلف ، آراء عصر آخر عفا عليه التطور ، وراح فى أدراج النسيان . فلقد ظل (فاجنوتسى) ، من الناحية العاطفية ، متخلفاً عن زمنه قرناً ، بل وأكثر من قرن ، إذ بقى محتفظاً بتلك الخلة الساذجة التى تعمر القلوب البسيطة : خلة إكبار المرأة التى تكون موضع الحب ، ورفعها إلى مرتبة المثل العليا !

على أن (جيما) لم تحتفظ من الهدوء إلا بمظهره ، وبقيت خلف القناع الذى أسبغته على نفسها ، تغذى احتقارها للرجل الطيب .. الأمر الذى ضاعف من شعورها بالخيبة التى منيت بها أخيراً !.. فلم تعد ترى فى (فاجنوتسى) سوى ما كانت تراه فيه من قبل : رجلا مسكيناً ، أبله ، مضحكاً ، مجرداً من كل الميزات التى تعتبرها مغرية ومرغوبة !

... على أنها أصغت مع ذلك إليه ، باذلة جهدها كى تحتفظ بلطفها وصبرها . ثم قالت له : « إننى أوثر أن أقول الحق .. فأنا

لا أحبك .. فى الوقت الحاضر ، على الأقل .. غير أنى أعتقد أن الحب يتولد مع الزمن . وهذا يتوقف عليك ! » .

يا للكلمات .. ويا للأكاذيب ! كانت قد عقدت العزم على أن لا تحبه أبداً ، ومع ذلك فقد نطقت بهذه العبارة ، بلهجة اصطنعت فيها طيب النية والصراحة ، فكان لها وقع رائع على (فاجنوتسى) ؛ وخطر له ما خطر لكثير من العشاق المنكودين فى مثل هذه الظروف ، من أن الزمن والرعاية لا يلبثان أن يحولا هـذا الفتـور إلى حب مشبوب .. ومن ثم شكرها فى حماس بالـغ ، وكأنها جادت عليه بسخاء غير مأمول !.. وإن هى إلا لحظة حتى بدت الأم فى ملابس الخروج ، والقبعة فوق رأسها ، والفراء حول عنقها ، فأقبلت على (فاجنوتسى) تهنئه فى ود زائف .. لكنه أخذ يشير إلى (جيما) ، منكراً ذاته ما وسعه ، كما يفعل الممثلون الذين يتوارون ليدعوا لمؤلف المسرحية الحظ الأوفر من تصفيق الجماهير !

وما لبثت المرأتان أن خرجتا إلى القداس ، وتركتاه ينعم وحده بهنائه الجديد !



• وظلت (جيما) فى الأيام التالية محتفظة دائماً بهذا المسلك الهادىء الخالى من الازدراء ، ومن الحنان على السواء ، فى علاقتها بخطيبها .. فإنه لأفضل للمرء أن يكرر اللحن ذاته باستمرار ، من أن يتخبط فى عزفه ! أما (فاجنوتسى) فقد أصبح وهو « خطيب » ، يثير من

السأم فى نفسها أكثر مما كان وهو مجرد نزيل !.. إذ أضاف إلى الغرائب التى كان يبديها فى الماضى ، غزلا متهافتاً ، ورقة عاطفية لم يكن لها من آثار سوى إثارة أعصاب (جيا) إلى أبعد الحدود !.. والأنكى من ذلك ، أنه تحول عن سهراته فى المقهى ، وأصبح يلازم البيت ليطارحها الهوى ، بعد أن حرمت الخطبة عليها أن تلوذ بحجرتها وتخلفه وحيداً مع أمها !

وأصبحا يجلسان على أريكة قديمة خضراء ، شديدة الصلابة ، فى أقصى قاعة الطعام ، بينما تستقر الأم عند طرف المائدة ، متعللة بالرغبة فى أن تكون على مقربة من النور لتخيط أو تقرأ .. ويتناول (فاجنوتسى) إحدى راحتى (جيا) بين يديه ، وهو يميل على الأريكة فى اضطجاع غير مكتمل ، ليتخذ وضعاً غرامياً غير مريح !.. ثم يمضى فى الحديث بصوت خفيض ، فيحدث خطيبته عن الزواج ، ويصف لها حياتهما المقبلة ، ويبصرها بأذواقه وأهوائه ورغباته ، ويسعى إلى أن يعرفها ، ويعرفها بنفسه .. كان يبذل جهداً كبيراً كى يؤدى دوره كخطيب ، وقد وفق فى ذلك فوق ما ينبغى !.. وكانت (جيا) فى جلستها الجامدة ، الساهمة ، لا تكاد ترد عليه إلا لماماً ، ولكن فى غير ضيق ولا احتداد ، رغم أنها كثيراً ما كانت تحس بالسأم والغيظ يخنقانها !

وكان (فاجنوتسى) بين وقت وآخر يقبل جبينها أو خدها فى احترام .. وجرؤ مرة واحدة خلال خطبتهما على أن يمس شفتيها !..

فكانت (جيا) تدعه يفعل فى إذعان .. بل لقد كانت اللمسات البدنية أقل إيلاماً لها من حديثه !.. وكانت تستمد قدرتها على الاحتمال واصطناع المظهر ، من أملها فى هجر هذه المدينة بعد زواجها ، والاستقرار فى العاصمة (روما) .. فما عادت تقوى على البقاء حيث كانت ، فى الأقاليم .. وكانت تتعزى عن حرمانها من أبهة الحياة فى المجتمع الراقى ، بسراب العاصمة الذى يلوح فى أفق حياتها .. وكالنملة التى ما يكاد عشها ينهار حتى تنهمك فى بنائه من جديد ، راحت مخيلتها تبنى فى إصرار ودأب ، صروحاً خيالية — بعضها فوق بعض — من نجاح وثراء ليس إليهما من سبيل ظاهر !

* * *

● وكانت الأمسيات طويلة ، فتعلمت (جيا) الشطرنج — لعبة (فاجنوتسى) المفضلة — كى تقسم الوقت بين الحديث ، وبين مباريات هذه اللعبة البارعة ، الحامية .. غير أن (فاجنوتسى) اللاعب كان أفظع من (فاجنوتسى) الثرثار ، فلم يكن يخسر عن طواعية . وكان فرحه الساذج بالكسب يثير أعصابها ، فلا تتمالك إذ ذاك أن ترميه بعبارة لاذعة ، يتلقاها فى بساطة وكأنها دعابة بريئة !.. وثمة أمر آخر كان يخرجها عن طورها : ذاك هو التهكم المنهور الذى كان (فاجنوتسى) يعمد إليه إذا عرض ذكر المجتمع الأنيق الراقى ، فكان يتكلم عنه فى سخرية وازدراء ، وبلهجة (الأستاذ) المترفع !— ولو أنه ما كان فى الحق يضمر لذلك المجتمع

ماكانت تضمره هي من احتقار – متأصل متغلغل – لمهنته ، ولكل عمل فكرى – ولم يكن يحس ، وهو مستغرق فى دراساته ، بميل إلى الاختلاط بذلك العالم .. إذ لم يكن يفهم كيف يقضى أشخاص – يشبهونه ويشبهون زملاءه فى المظهر – حياتهم فى الرقص واللعب والغزل والجرى وراء الملاذ التافهة ! .. كان هؤلاء القوم يبدون له كأنما أصابهم خبل، فهم مشغولون بالحماقات، وهم دائماً فى سخف وقلق لا طائل من ورائهما !

ولم يكن – إذا تكلم عن هؤلاء – يملك أن يكبح ضحكته العصبية الغريبة ، أو أن يحبس كلمة لاذعة يكون قد تصيدها من إحدى الصحف الهزلية التى كان يهواها ! .. ولكن (جيا) كانت تعتبر السخرية من هذا العالم – الذى كانت تعجب به وتتجه إليه بكل رغباتها – سخفاً مضجراً ، بل « تجديفاً » وكفراً ! .. فهى لم تكف قط عن الأمل فى أن تلج ذلك العالم يوماً ، ولو باسم (فاجنوتسى) المزيل ، الخامل :: بل إن ما حدث مصادفة، من كشف سر قرابتها المستترة لأهل المزرعة ، لم يحطم غرورها ، وإنما زاده ضراماً .. فإن للكبرياء أساليب غريبة تعرف كيف تستغل كل شىء ولو كان مخزياً ! .. وهل كان يقلل من نبل دمائها وعراقة محتدها، أن تكون ابنة غير شرعية ؟.. إنها ماكانت لتحجم عن أن تعلن فى الملأ أصلها لولا إشفاقها على أمها ! .. ولقد كان ظلماً فوق كل ظلم – عندها – أن تظل منبوذة مبعدة عن عالم لها كل الحق أن تنتمى إليه .. ومن ثم

فقد كانت سخريات خطيبها المسرفة من هذا المجتمع ، إهانة مابعدها إهانة !

ولقد حاولت فى أول مرة أن تفهمه أنها لا تستسيغ أن يتناول أحد هذا الموضوع بالهزل .. ثم سكتت فى المرة الثانية – ولو أنها عانت فى سبيل السكوت مشقة كبيرة ! – حتى إذا ماكانت المرة الثالثة ، انفجرت فى (فاجنوتسى) بعنف أدهش أمها ، رغم أنها تقرها على آرائها فى هذا الصدد وتؤيدها .. وكانت العبارات التى انبعثت فى انفجارها ، تتردد متوالية كالنغم الرئيسى المتكرر الذى يسود لحن «سمفونية» ما .. قالت إن «ظفر» الواحد من أولئك الذين اعتاد (فاجنوتسى) أن يسخر منهم ، كان يفوق فى قيمته (فاجنوتسى) نفسه ، بأكمله ، وبعلمه وأساتذته ! .. وقالت إنه يصدر فيما يقول عن حسد وحقد لا يقوى على سترهما .. حسد وحقد مبعثهما أنه يعرف أن أبواب ذلك العالم – عالم المجتمع الراقى – ستظل دائماً موصدة فى وجهه ، فلن يظفر بشرف إلقاء نظرة واحدة خلالها !

واستبدت بفاجنوتسى دهشة بالغة إزاء هذا المشهد ، فما خطر له قط أن يكون فى الدنيا من يفضل الشخص الذى يدرس الطبيعة ويعلمها للناس ! على أن (جيا) لم تدع له فرصة ليحتج على أقوالها أو يبرر أقواله ، وإنما نهضت وغادرت قاعة الطعام ، ثم صفقت الباب خلفها !

وكان ذلك هو الشقاق الوحيد الذى شجر بينهما ، وقد استطاعت أمها أن توفق إلى إصلاح ذات البين بينهما فى اليوم التالى ، بعد عناء ..

* * *

● وفى نهاية شهر يوليو ، وبعد خطبة لم تستمر أكثر من شهر ، تزوج الخطيبان فى شبه خلسة ، فى كنيسة صغيرة بضاحية ريفية .. وكتبت (جيا) إلى صديقاتها فى مزرعة (لاشيناى) رسالة اعتذار عن عدم دعوتها إياهن ، لكنها خضعت لغريزة الكذب القديمة ، فلم تقو على منع نفسها من أن تزعم فى النهاية أن زوجها رجل غنى ، يملك فى روما قصراً سيقضيان فيه الشتاء !

وبعد أن ودع العروسان مدام (فوريزى) ، سافرا إلى (فينيسيا) فى رحلة شهر العسل .

* * *

الفصل الثــامن

● تعلقت (جيا) بفكرة مغادرتها مدينتها للاستقرار فى روما ، بمثل الرغبة المتحرقة التى كانت تتعلق بها قديماً بأمل الزواج من (باولو) !.. وكان زوجها قد وعدها بذلك دون أن يكون فى وعده اليقين الذى أبدته هى فى رسالتها إلى صديقتيها ، فلما عادا من الرحلة فى نحو منتصف سبتمبر ، قال لها أن لا أمل فى الوقت الحاضر فى أن يعين فى روما ، وأنه لا محل على كل حال للتفكير فى تغيير إقامتهما فى هذا الشتاء !

وكانت هذه خيبة أمل جديدة أضيفت إلى سابقاتها ، وهوت بجيا مرة أخرى إلى هاوية السأم واليأس !.. إذن فسواء أكانت زوجة أو بنتاً ، فهى محكوم عليها بأن تقضى حياتها فى هذه المدينة التى يذكرها كل حجر فيها وكل إنسان من أهلها بيؤسها وخيباتها ومذلاتها القاسية !.. وليس ينفعها إذن فى شىء أنهــا أذعنت ورضيت أن تكون امرأة (فاجنوتسى) !!

.. وازدادت سيطرة هذه الأفكار المثقلة بالغضب ونفاد الصبر على (جيا) ، وصارت شبيهة بشحنة مكدسة فى غير نظام فى أعماق سفينة ، متى ساء الجو أخذت تصطدم بجدران السفينة لتغرقها فى النهاية !.. وانتهى بالعروس الحال ، من فرط ما اضطربت هذه

الأفكار فى ذهنها الخاوى ، إلى أن دار رأسها .. وتهيأت لأسوأ القرارات والنتائج !

وكانا قد تركا مدام (فوريزى) فى مسكنها العتيق وأقاما فى بيت جديد خارج المدينة ، ذى جدران حجرية رمادية وسقف من القرميد ونوافذ خضراء ، يقوم فوق ربوة محصنة يكشف الرائى منها إلى مدى البصر مسارب وسفوحاً تتراءى إلى حدود الجبال الرابضة عند الأفق البعيد .. منظر برى موحش ، مجرد من المراعى والحقول المزروعة ، تكسوه إلى مرمى البصر غابات مشذبة ونباتات ضئيلة ، وتتردد فيه فى موسم الصيد أصداء طلقات البنادق ، ويرتفع فى أدغاله الصفراء ، هنا وهناك ، الدخان الأسود المنبعث من نار الفحامين الموقدة .. ثم لا أثر آخر للحياة بعد ذلك غير بضعة بيوت نادرة فى الجهة المؤدية إلى المدينة ، شبيهة كلها ببيتهما ، موزعة فى غير انتظام على أرض تناثرت فيها الصخور .. وليس وراء ذلك إلا كتل الجدران السامقة المتعالية إلى السماء ، التى تزدوج بأبراجها وتحصيناتها مخارج التل الصخرى ومداخله .. ولما كان باب المدينة مستوراً وراء أحد تلك الأبراج ، فإن التحصينات كانت تبدو من بيت(فاجنوتسى) مسدودة تماماً ، لا تتخللها ثغرات ولا فتحات .. وفى مثل هذا المكان الموحش يتولى المرء إحساس بالغ بالعزلة ، وبالنفى فى أقصى العالم !

وكان البيت جديداً كل الجدة ، فخشب الأبواب غض يطقطق

وتنترى منه عصارته ، وللحجرات أصداء الكهف ورطوبته ، وعلى زجاج النوافذ لطخ البياض لا تزال ، والحديقة المربعة جدباء لا طين فيها ، يملؤها حصى أبيض مدبب ، تنشر عليه قضبان البوابة الحديدية — فى الساعات المشمسة — ظلالها النحيلة الحزينة .. وما إن وضعت (جيا) قدميها أول مرة فى بيتها هذا الجديد حتى حسبت أنها تدخل عنبراً فى مستشفى ، أو سجناً !.. ولم تتردد فى الإفضاء لزوجها بهذا الشعور ، الذى اعترته منه دهشة بالغة ، وهو المفتون بالطبيعة ومشاهدها غير المصنوعة ، والذى كان يعتقد أنه سيدخل على زوجته السرور باختياره بيتاً يشرف على مساحة نصف الإقليم ! .. أما ما ينطوى عليه المنظر من كآبة ورتابة ، وعتمة ، وأدخنة ، فإنه لم يكن فى الحق قد تنبه إليه .. بل ولا يرى فيه الآن — وقد نبهته إليه — أى غضاضة أو سوء ، فالبيت جميل ، وموقعه حسن .. ومع ذلك فإذا انقضى الشتاء دون أن يكون قد حصل على الوظيفة التى يرجوها ، فإنه يعدها وعداً مؤكداً بالعودة إلى السكنى فى بيت آخر فى قلب المدينة ..

وهكذا كان بيتهما موضوع أول خلاف نشب بينهما بعد الزواج !.. وقد اكتشفت (جيا) عند ذاك ، فى مقت ومفاجأة ، أن (فاجنوتسى) كان يخفى تحت مظهر الرجل المسكين الطيب طباعاً أقوى وأشد سطوة مما تصورت !

* * *

● وفى ذلك البيت المنعزل عانت (جيا) الضيق والسأم .. فى حين كان زوجها منهمكاً فى تدريس العلوم الطبيعية أو فى إجراء تجاربه فى معمل الكلية ..

لم تكن القراءة تستهويها ، فيما عـدا صحف السينما والروايات البوليسية !.. وكذلك لم تكن تميل إلى عمل البيت ، الذى عهدت به إلى الخادمات ، فكانت النتيجة أن ظل البيت مهملا قذراً كما كان يوم دخلته !.. أما الشواغل الأخرى التى كانت لها قبل الزواج ، كالحياكة وشغل الإبرة والبيانو ، فقد باتت تثير اشمئزازها ، ربما لأنها كانت تذكرها بذلك العهد الجحود !.. بل إنها لم تتنازل حتى بإلقاء نظرة على الحديقة ، فلبثت جدباء لايزينها غير الحصى ، وغير « خصلات » من العشب الأصفر ، وتلك البوابة السوداء التى تحاكى حقاً بوابة السجن !

أما بصدد عنايتها بشخصها ، والتسليات النادرة التى يسع المدينة أن تقدمها لها ، فقد تعودت (جيا) أن تنهض من نومها قرب الظهر ، وأن تقضى نصف العصر فى تصفيف شعرها ، وتمويجه ، وتلميع أظافرها وتهذيبها .. ثم تلبس ثيابها فى بطء شديد — كما لو كانت تقصد حفلة !— وتذهب للنزهة مع صديقاتها فى شارع الكورسو.؛ وهناك فى زحمة الجماهير التى تملأ الشارع السيىء الإضاءة ، كانت تحرص على أن تحيى القوم الذين تعرفهم منذ سنوات .. وقد

تدخل محـلا للحلوى مما يتخذ ملتقى للمجتمع المحلى ، فيستقبلها على عتبته شباب المدينة الأنيق بعبارة غزل ، أو يتلفتون كى ينظروا إليها !

وكانت (جيا) تتردد أيضاً على دار السينما التى تغير برنامجها مرة كل أسبوع . وكانت الدار قبل ذلك مقراً للمسرح البلدى القديم ، فكانت تتألف من قاعة واسعة ، معتمة ، تحف بها أربع طوابق من الشرفات الحمراء المذهبة ، وتعلوها قبـة منقوشة ملونة . ولم يكن يقدم فى الدار فى الزمن الخالى غير « الأوبرات » ، لكن الانهيار بدأ مع مطلع القرن ، فتخلت « الأوبرا » عن مكانها للمسرح التمثيلى .. ثم جاءت « الأوبريت » فالاستعراضات الراقصة ، وأخيراً الحفلات الخيرية .. قبل أن تنقذ «السينما» الدار من الإغلاق النهائى ، أو تثبت انهيارها وتدشنه !

وكانت النقوش المذهبة فى القاعة تتشقق عن الجير الأبيض ، والعرائس المرسـومة فى القبـة الوردية قـد طمستها بقع كبيرة من الرطوبة .. والمقاعد المخملية الحمراء كانت قد استبدلت بها مقاعد معدنية تهبط وتعلو محدثة ضجة فظيعة !.. وكانت تملأ الجو رائحة أحذية مبتلة ، ودخان، ونشارة رطبة .. وخلال فترات الراحة كان يكتفى بإضاءة مصابيح الشرفة الأولى، فيظل سائر الصالة مغموراً فى ظل داكن يشبه عتمة «سيرك» خال . والشاشة البيضاء المعلقة على ستارة من القطيفة الحمراء الداكنة كانت تثير فى الذهن ؛ فى تلك العتمة ، صورة جهاز جنائزى رهيب !.. لكن (جيا) التى لم تكن قد رأت

مدينة غير مدينتها ، لم تحس لهذا كله أثراً كبيراً فى نفسها ، فلقد أوتيت — إلى أقصى درجة — ما هو معهود فى أهل الأقاليم من عدم حساسية بالقبح الزرى .. ولو أنها كانت ، على العكس ، مرهفة الحساسية بتلك الأصوات المدوية التى تنبعث من الستار ، وتلك الرؤوس الكبيرة المعتمة التى كانت ترى على الشاشة ، وقد ضمت شفاهها البراقة فى قبلات طويلة لاهثة !.. وقد بلغ من ولع (جيا) بالسينما أن لم يكن يفوتها فيلم من أفلامها ، فإذا لم تجد من يصحبها ، لم تكن تتردد فى الذهاب وحدها .

* * *

● والصداقات لا تتخير بالمصادفة ، بل وفقاً لما يسيطر علينا من هوى ، ومن هنا ارتبطت (جيا) فى نهاية الخريف برومانية تدعى (ألفير كوسيانو) .

ولم يكن أحد يدرى على وجه التحديد ما الذى رمى بهذه المرأة إلى تلك المدينة الصغيرة ، كما لم يكن أحد يعرف شيئاً عن ماضيها .. لكن البعض كان يؤكد أنها تحمل لقب « كونته » ، وأنها من عائلة بارزة .. ولو أن أحداً كلف نفسه جهد الرجوع إلى مصدر هذه الشائعة لاكتشف أن المصدر الذى نشرها هو مدام (كوسيانو) نفسها . على أن كل ما كان فى الإمكان تأكيده هو أنها هبطت المدينة منذ بضع سنوات ، فأعانها على الدخول فى المجتمع هذا الاسم الأجنبى الذى يخلع عليها نوعاً من الامتياز ، وهذه الشائعات التى عرفت

كيف تذيعها ببراعة ، وجرأتها المدبرة ، وحيويتها الخارقة .. ونجحت فى وقت وجيز فى أن تفتح لنفسها أبواب المجتمع الرفيع فى الإقليم .. وبسبب تحررها «وتجاربها العالمية» شملها بالود بعض أثرياء الشباب ممن كانت أسرهم تقسرهم على العيش فى الإقليم، فلم يكونوا يجدون أبواباً لإرواء تعطشهم إلى الإسراف والمغامرات ، سوى المقامرة .. والرحلات إلى العاصمة بين الحين والحين .

وكانت مدام (كوسيانو) تقول إنها عاشت سنوات فى باريس ، وكانت فى الواقع تجيد الفرنسية خيراً من الإيطالية، التى كانت تنطقها بلكنة مضحكة .. بل إنها كانت تزعم أنها عبرت أوربا كلها ، وأنه لا توجد مدينة ذات صيت من مدن المياه المعدنية إلا وقد أقامت فيها فترة ما .. وكانت تلغط بلا توقف بأسماء شخصيات المجتمع الرفيع ، أولئك الذين ترى صورهم تتكرر فى المجلات ، ويبلغ صيت الكثيرين منهم فى العالم أضعاف صيت علماء البلاد وفنانيها !.. ولم تكن مدام (كوسيانو) تشير إلى أفراد الطبقة الارستقراطية المحلية بألقابهم أو أسماء عائلاتهم ، بل بأسمائهم الشخصية التى لا كلفة فيها ، مثل : (بيير) ، (بول) ، (جاك) ، (أندريه) !.. أما الشخصيات البارزة فى مدن إيطاليا الأخرى ، فكانت تسميهم بأسماء التدليل التى لا يجرؤ على مناداتهم بها غير الصديق الحميم !.. وهكذا كانت «الرومانية» تنشر حولها الجو الذى يوحى بأن لها مع أولئك الأعلام علاقات حميمة ، إن لم تكن فاضحة !

وكان من عادتها أيضاً ، عندما يرد فى الحديث اسم شخص من بيت نبيل، أن تقاطع المتكلم كى تسأل أو تستعرض معلوماتها عن نسب ذلك الشخص وقراباته،موحية بذلك بمعرفتها العميقة الأكيدة بجميع تقلبات أحوال العائلات الإيطالية النبيلة، السابقة والحالية !.. كانت، كالعسكريين الذين يعرفون – عن ظهـــر قلب – خريطة تحركات الجيش كلها ، تمسك على أطراف أناملها بكل أنبـاء الفضائح ، والزيجات الجديدة، والولادات ، والوفيات ، والأقاويل، والأسرار الخاصة بذلك الجيش المقاتل الذى يتمثل عنـدها فى : المجتمع !.. وكانت قد جعلت من نفسها « سلطة عليا » فى هذه الموضوعات ، غـير مستندة إلى علم مكتسب ، وظلت تحتفظ بهذه المكانة على الدوام، وتنجح – بطريقة لايدرى كنهها أحد – فى تجديد معلوماتها، وإنعاشها بالتصويبات والتعديلات التى تحتمها الظروف .

ولم يكن أحد ليستطيع تحديد عمر مدام كوسيانو على وجه الدقة، وإن بدا أنها تتراوح مابين الثلاثين والأربعين ، ولكن بلا نضرة .. فقد كانت امرأة ذابلة مضناة ، مستهلكة فى الرحلات والمغامرات، مبتذلة القوام ، مكتنزة قليلا ، ذات وجه دهنى صقيل بارد ، لزج وشره !.. وكان التناقض ملحوظاً فى هــذا الوجه بين العينين الرماديتين الصغيرتين – القويتين الساحرتين – والابتسامة المعسولة الباهتة التى يفتر عنها ثغــر معتم بلا شفتين ، يعلوه أنف غريب مقوس ومستدير ، كأنه منخار سلحفاة !.. وبرغم تلك الابتسامة

التى تسيل عذوبة ، وبرغم « الماكياج » البارع ، كان وجهها – بما يزدحم فيـه من التجعدات الصغيرة المنترية بالدهن – يشى بنضج خبيث ، مثـل جسمها الذى لم يكن ضغط ثيابها و « مشدها » عليه بمنع ترجرج خاصرتيه ، أو تأرجح مشيته التى تذكر بمشية أخـرى ترى فى بيوت الدجاج ، ومأثورة عن بعض الدجاجات العجوز الثرثارة !

وكانت تسخو بلمحات عينيها وغنات صوتها ، وبضحكاتها اللينة وإيماءاتها ، وغير ذلك من أفانين البنت الصغيرة .. فإذا سئلت عن عمرها ، أجابت دون تردد بأنهـا أكبر « قليـلا » من الثمانية والعشرين !

.. بهذه المرأة ارتبطت (جيما) بالصداقة .. أو بالأحرى أن مدام (كوسيانو) هى التى « استولت » بفتونها على (جيما) .. حتى صارتا تلتقيان كثيراً ، تدنى إحداهما من الأخرى آراء وأذواقاً مشتركة !

* * *

الفصل التاسع

● كانت مدام (كوسيانو) – كي تحظى برضاء (جيا) – قد وجدت وسيلتين أو ثلاثاً مضمونة الأثر : كانت تصف لها العالم اللامع الذى يفهم من يسمعها أنها عاشت فيه دائماً خلال رحلاتها الأوربية !.. ثم كانت تندد بالحياة فى مدن الأقاليم فى سخرية مرة .. وأخيراً كانت بدهائها الشرير المستتر توحى إلى (جيا) – بكلمة تلقيها اليوم اعتباطاً ، ثم تتبعها بأخرى فى الغد – أن لها زوجاً غبياً « غير جدير بها » .

ولم يكن ثمة داع لهذا الجهد الأخير ، فإن (جيا) نفسها كانت مقتنعة بذلك سلفاً ، بيد أن إيحاء صديقتها قد لذ لها ، إذ وجدت فيه إقراراً – من امرأة عليمة خبيرة – بأنها محقة فى ضيقها وتقززها !.. وهكذا أخذت مدام كوسيانو تسلق سيرة فاجنوتسى بسخرياتها !.. أقدمت على ذلك فى بادئ الأمر باحتياط وحذر ، كالرحالة المغامر إذ تلقى به الأقدار فى أرض لا يطمئن إليها كثيراً .. ثم أسرفت فى خطتها حين لمست ما كانت ترجوه من ترحيب ورضى .. وفى النهاية أوغلت فى هذا المسلك فى قسوة سافرة ، مستعذبة !.. وكان لها بعض موهبة فى التقليد ، فكانت تحاكى صوت زوج (جيا) ، وحركاته ، وعبوسه ، و (جيا) تجد فى هذه السخرية التى تضحكها متعة خبيثة ..

كذلك كانت مدام (كوسيانو) تعرف كيف تفيد صديقتها ، إذ كانت تزودها بمشورتها فى اختيار فساتينها وقبعاتها ، وكثيراً ما كانت تصنعها لها بنفسها – فقد كانت فى فقرها الشديد تتسول وجبة غداء هنا ، ووجبة عشاء هناك .. فلما لم يف ذلك بمعاشها ، صارت تفصل الملابس وتصنع القبعات ، لا كحائكة، أو صانعة قبعات بالطبع ، وإنما كسيدة رفيعة المقام تنشد « التسلية » وتتفضل على صديقاتها بأسرار أناقتها !

وكانت تزهو بما اكتسبته من خبرة « باريسية » – وإن بعد بها العهد وخبا بريقها فى ذاكرتها – كما كانت تعتز بمعرفتها اللغة الفرنسية ، وتجد دائماً بين نساء الإقليم سيدة طيبة على استعداد لأن تدفع لها ثمن نصائحها !.. وفضلا عن ذلك فقد كانت لها اختصاصات أخرى : فهى تصنع من الأدهنة والعطور مركبات شاذة ، طبقاً لوصفات من ابتكارها .. كما تصنع « الأباجورات » الرومانية من حرير براق وتجعل لها حواف من لؤلؤ ، بأشكال ممجوجة ، سقيمة الذوق ، ثم تبيعها مع ذلك بثمن غال !

* * *

● وهكذا لم ينقض وقت قصير ، حتى بلغت الألفة بين المرأتين حداً حمل (جيا) على أن تقص على الرومانية ما كانت تدعوه « سر حياتها » ، فقد كانت – بدافع من غرورها – تتحرق إلى الإفضاء إلى إنسان ما بسر مولدها ، وزواجها الذى لم يتم !.. واستغلت

مدام (كوسيانو) الفرصة لتحيط (جيا) المسكينة بشباكها .. فاستمعت إليها فى البداية بصمت يشوبه الاستبشاع والدهشة ، دون أن تقطع عليها حديثها إلا لتطلق صيحات الاستنكار والفضول والرثاء .. ثم راحت تضيف – حين انتهت القصة – تعليقات بدت لجيا مليئة بعمق الفهم ، وبالمودة : هذا ظلم ؛ وعار .. فقد كان ينبغى على صاحب الضيعة – إزاء الانقلاب الذى ألم بحياة (جيا) حين اكتشفت أصلها – أن يعوضها بمنحها مبلغاً تجعل منه صداقاً لزواجها – (دوطة) – ثم أن يبحث لها عن زوج يليق بها .. أما أن يدعها تتزوج رجلا مثل (فاجنوتسى) ، فهذا دليل جديد – إن كانت ثمة حاجة إلى دليل – على انعدام إحساسه، وعلى أنانيته !.. ثم تردف مدام (كوسيانو) ذاكرة أن قصة كهذه حدثت فى المجتمع الراقى بمدينة بوخارست ، لم تختلف عنها إلا فى أن الحقيقة عرفت هناك بعد الأوان ، بعد أن كان الأخ والأخت قد تزوجا منذ زمن وأنجبا طائفة من الأطفال اللطاف !.. ثم تختم حديثها قائلة بالفرنسية وهى تتظاهر بالاستغراق فى التفكير : « هذه هى الحياة !.. لا ينبغى أن يطمئن المرء فيها إلى شيء أبداً ، فهى كلعبة الروليت ، يكفى تغيير رقم واحد فيها لإفلاس المرء أو لإثرائه ! .. ومن ثم فخليق بالمرء أن يستمتع بالحياة ويغنمها فى حينها ، دون أن يشغل نفسه بالمستقبل .

* * *

● واقتنعت (جيا) فى ذلك اليوم بأنها ماحظيت فى حياتها بصديقة أفضل من الرومانية ، وكانتا فى بيت الأولى ، فختمتا حديثهما الطويل عن هذه الأوضاع الغريبة بالخروج من البيت وذهبتا عبر تيه من الأزقة والسلالم إلى شارع « الكورسو » وكان الوقت أصيلا ، والشارع الكبير الممتد بين صفين من القصور ، يزخر بالمتنزهين.. وقالت مدام (كوسيانو) وهى تومىء بازدراء إلى ذلك الحشد الحافل : « هذه هى حياة الأقاليم : النزهة .. دائماً النزهة ، بلا توقف حتى لاحتساء كوب ماء .. وفى المساء العشاء ، ثم إلى السرير من الساعة التاسعة !.. ما لم يجد المرء لعبة ساذجة لقضاء الوقت » .

وأقرت (جيا) صديقتها على رأيها ، فهى بهذه الحياة عليمة !.. وبينما هما تتناجيان وهما متجهتان بخطى هادئة نحو الميدان ، انبعث من وسط القوم صوت ينادى : « جيا ! يالها من مصادفة ! » . فالتفتت ، وإذا بها ترى (فيتونى) الشاب الذى حملها بالسيارة إلى مدينتها فى الخريف الماضى ، واقترح عليها بين الجد والهزل أن أن تذهب معه إلى روما وتقيم فى بيته !

وقال (فيتونى) وهو يأخذ بذراعها فى غير كلفة : « كم يسرنى أن أراك .. إن سرورى لعظيم حقاً .. لقد علمت أنك تزوجت من البروفسور (لاجنوتسى) أو (باجنوتسى) !.. تهانى الخالصة .. لماذا لم تأتى إلى (لاشيناى) كى ترينا (راجنوتسى) هذا ؟ » :

فأجابت جيا عن سؤاله هذا فى لهجة امتزج فيها الجد بالغموض، قائلة إنها لن تعود أبداً إلى الضيعة . ولكن (فيتونى) لم يبد أى فضول وتحول يسألها إن كانت وحــدها ، وإن كانت تحب أن تتناول « الأبريتيف » معه ؟.. والتفت (جيا) – فى استياء لعدم اكتراثه بسر حياتها – فقدمت إليه مدام (كوسيانو) التى بادرت تسأله إن كان هو (لوتشانو فيتونى) الذى يقطن فى روما ؟.. وأجاب (فيتونى) بعدم اكتراث بأنه هو حقاً ، فراحت مدام كوسيانو – بلباقتها المألوفة – تحصى قائمة طويلة من أسماء أصدقائها المشتركين . غير أنه أعرض عن هذه المرأة الناضجة ، المتكلفة ، وعن ولعها بعرض علاقاتها الاجتماعية ، لينصرف باهتمامه إلى (جيا) التى لم تكن تحيد عنها عيناه !

كان (فيتونى) طائشاً غشوماً ، وكان ولعه بالنساء أكبر من طموحه الاجتماعى ، وقد بدت له (جيا) متغيرة عن ذى قبل ، ولعلها ازدادت جمالا .. بل إنه رأى فيها جمالا جامحاً لم يعرف الرضى . وتذكر أنها كانت قد أعجبته منذ سنة ، فأحس بأنها الآن أكثر استثاراً بإعجابه !.. ولم يفته أنهــا كانت تتجنب الكلام عن زوجها ، ولا تستجيب للدعابات التى تشير إليه ، بل اقتصرت على بضع عبارات تقليدية فاترة ، لا تنم عن حب مشبوب !

* * *

● وكان الثلاثة قد واصلوا السير فى اتجاه الكاتدرائية ، وأخذ (فيتونى) يروى لجيا تفصيلات ما حدث فى « الفيلا » فى ذلك العام ، قائلا إنهم أسفوا لغيابها . فأجابت وقد استخفها الطرب : إن هذا لم يكن ممكناً ، فهناك كثير من الفتيات يفقنها صباً وجمالا !.. وهكذا مضى الحديث بينهما يشوبه الرد ويتخلله الغزل . أما مدام (كوسيانو) فإنها أخذت بذراع (فيتونى) وقد بدا عليهما كأنهما صديقان قديمان، وراحا يتبادلان النظرات – فى تواطؤ أبناء المجتمع ومكرهم – ويضحكان من (جيا) ويلمزانها بالفكاهات !.. وكان (فاجنوتسى) الطيب هدفهما الأول . ومع أن (فيتونى) لم يكن قد رأى الزوج من قبل ، إلا أنه وفق إلى تكوين فكرة دقيقة إلى حد كبير عنه : فما هو – على أية حال – سوى نموذج من النماذج العديدة للزوج .. الزوج الأزلى الأبدى الذى لايتطور ولايتغير !.. وراحت مدام (كوسيانو) تتظاهر بأن (فيتونى) كان يستدرجها ويضطرها رغم مقاومتها إلى أن تتفوه بملاحظات غير مستملحة عن (البروفسور) التعس ، ينطلق إزاءها (فيتونى) ضاحكاً ، ويلتفت إلى (جيا) – التى لم يفلت ذراعها – ليسألها إن كانت هــذه الملاحظات صحيحة ؟.. وتظاهرت (جيا) فى البداية بالاستياء ، ثم انساقت إلى ما فى هجاء زوجها وانتقاده من موافقة لميولها ، فتقبلت فى صمت ورضى أجرأ دعابات مرافقيها .. بينما أخذ (فيتونى)

يضغط ذراعها بحركة ذات مغزى ، كانت تضطرب لهـا دون أن تجرؤ على مصارحة نفسها بهذا المغزى !

وانقضت ساعة النزهة فى هذه الأحاديث المرحة ، ثم وجـد الثلاثة أنفسهم — قبل أن يتفقوا على مقصد يتجهون إليه — فى ميدان الكاتدرائية ، حيث ينتهى شارع « الكورسو » الذى كان قد خلا من رواده ، وحيث يبدأ الشارع الصغير المتعرج الذى كان على (جيا) أن تسلكه فى عودتها إلى دارها . ولكن (فيتونى) لم يشأ أن يدعها تمضى ، قائلا : إن من القسوة أن تتركاه بمفرده بعد هـذه الفترة البهيجة ، واقترح على المرأتين أن تتناولا العشاء معه فى فندقه :

ورحبت مدام (كوسيانو) بالدعوة ، قائلة إنها فرصة رائعة ، وإن (فاجنوتسى) لم يفطن إلى شىء ، لأنه لا يفكر فى غير علوم الطبيعية ! أما (جيا) فقد عارضت وفى نفسها نذير مبهم . على أن الآخرين لم يلبثا أن تغلبـا على معارضتها ، فأبلغت زوجها تليفونياً أنها ستتناول العشاء فى المدينة !

* * *

● وقصد ثلاثتهم إلى « فندق أسبانيا » — حيث كان (فيتونى) يقيم — واتخذوا مجلسهم فى أقصى قاعة الطعام العتيقة ، التى بدا جوها راكداً حيياً ، يسوده سكون لا تبدده سوى ضحكات (فيتونى) والمرأتين .. أما سائر الموجودين — من التجار الرحل وضباط الحامية — فقد ألفوا تناول الوجبات ذات الأسعار المحدودة ، فى صمت

ممض ، مشبع بالتفكير . ومن ثم راحوا يحدقون فى (فيتونى) والمرأتين فى حسد واستنكار ! .. حتى الخدم الذين بلغ منهم الكبر مبلغه فانحنت ظهورهم وهم فى ثيابهم البيضاء البالية ، حتى هؤلاء بدا فى حركتهم المتباطئة ، ووجوههم المتجهمة ، أنهم كانوا يستهجنون هذا الصخب الشاذ !

وكان (فيتونى) بالذات هو الصارخ الصاخب . فى حين حاولت المرأتان أن تتخذا مظهر سيدتين رقيقتين ، رفيعتى القـدر ، ألقت بهما المصادفة إلى ذلك المكان الذى لم يعد يلائم طابع العصر .. ومع أن (فيتونى) لم يكن آية فى الذكاء ، إلا أنه أوتى القدرة على إدراك ما فى نفوس الغير ، فى خشونة وسخرية ، وقد أدرك موطن الضعف من نفسى زميلتيه ، فأخـذ يبالغ فى إضفاء جو من المرح المتهوس الصاخب ، على ذلك العشاء .. إذ خيل إليـه أن هـذا سبيله إلى استهواء مدام (كوسيانو) و (جيا) معاً .. الأولى لأنهـا عاشت دواماً فى هذا الجو ، والثانية لأنها كانت تصبو إلى العيش فيه !

وطلب نبيذاً فرنسياً لم يسبق لجيا أن ذاقته ، ففحصته الرومانية بعين الخبيرة المستريبة ، قبل أن تمتدحه فى ثقة العارفة .. ثم أخـذ يروى نوادر مستهجنة ، أظهرت مدام (كوسيانو) أنها تستمرئها — كما استمرأت النبيذ — فى حين كانت (جيا) لا تفقه لها معنى ، وتسمعها على مضض .. وكان بين حين وآخر يصيح : « فى صحـة ياجنوتسى ! » — متعمداً تحريف الاسم التعس — « فى صحة الغائب

العظيم » .. وبحمل (جيا) الحائرة المترددة على أن تقارعه الكأس بالكأس ، بينما تسعى قدمه تحت المائدة لتضغط قدمها ، فى تلك المغازلات السمجة التى بدت له مناسبة للمقام .. ولم تقو (جيا) فى ذعرها واضطرابها على التملص منه ، أو مقاومته .. وزادها ارتباكاً وشروداً أن بدأ النبيذ الذى أسرف فى حملها على تناوله ، يفعل مفعوله ! أحست أنها منغمسة فى جو رائع ، لا تكاد تصدق أنه حقيقى !.. كأنما هو حلم لا تنجم عن أخطر التصرفات فيه نتائج ما .. فاستعذبت أن تعيش فيه ، وأن تنساق فى تياره !

* * *

● وفى ذلك الجو من الحقيقة الحالمة ، الذى عاشت فيه مشدوهة ، سمعت مدام (كوسيانو) تقترح أن يذهبوا فيتناولوا عندها زجاجة شراب .. وأذهل (جيا) من نفسها أنها تحمست فى قبول الاقتراح بمرح !

ومنذ تلك اللحظة : كان الشراب قد فعل مفعوله السيىء ، فغدا فى كيانها شخصان ، أحدهما يتصرف كما لو كان مجرداً من الوعى ، فهو كالآلة !.. والثانى يراقب الأول بذهن صاف ، وإن كان عاجزاً تماماً عن التصرف ..

وبهذا الازدواج فى الشخصية ، رأت نفسها تخرج من الفندق بين مدام (كوسيانو) و (فيتونى) — الذى كان يطوقها بذراعه متعللا بأنه يقيلها من الترنح ! — وبدا لها شارع « كورسو » خالياً ،

وقد أظلمت واجهات البيوت على جانبيه ، حتى كادت لا تعرفه .. ولمحت على بعد ، رجلا يدور نصف دورة حول نفسه وهو يولج مفتاحاً فى باب ، ثم يختفى فى بيت خيل إليها أنه نموذج مصغر من الورق المقوى ، فى شارع صيغت بيوته من خشب منقوش !..

كان الثلاثة وحدهم فى الشارع الواسع ، وكلما مروا بأحد مصابيح الطريق ، استطالت ظلالهم بشكل غريب على الأسفلت !.. حتى إذا بلغوا الكاتدرائية دقت الساعة ، فكان لثقل وقع أولى رنات الناقوس ولرهبتها أثر فى نفوسهم جعلهم يقفون لحظة جامدين ، يصغون إلى تلك الدقات البرونزية التى تنتشر موجاتها الصوتية حتى تبلغ أقصى الآفاق . وعند الدقة الثانية استأنفوا السير ..

ودخلت بهم مدام (كوسيانو) — التى تقدمتهم لترشدهم إلى الطريق — تيهاً من الشوارع الصغيرة ، والأزقة الرطبة ، والسلالم الزلقة ، والممرات المنحنية ، حتى توقفت أخيراً أمام باب صغير أخضر ، وقالت وهى تخرج من حقيبة يدها مفتاحاً من الحديد كبير الحجم : « ها قد وصلنا ! » .. ثم فتحت الباب بجهد وسبقتهما فى الظلمة ، وهى توصيهما بأن لا يحدثا صوتاً . وكان السلم صعب المرتقى ، يكاد يكون عمودياً ، وقد بلغ من الضيق إن لم يكن



ولم تصعد (جيما) ، بل تركت نفسها لفيتونى يدفعها ، ويستغل الظلام فيتحسس بشفتيه عنقها !..

يتسع لغير شخص واحد !.. ولم تصعد (جيا) ، بل تركت نفسها لفيتونى يدفعها ، ويستغل الظلام فيتحسس بشفتيه عنقها !

* * *

• وعلى أطراف الأقدام ، دخلوا شقة صغيرة ، متواضعة ، قليلة الأثاث ، قدمتها مدام كوسيانو – بتفخيم متهكم – على أنها « قصرها ! » .

وألقى الشاب بنفسه على أريكة ، وهو يتنهد بارتياح ، وجذب (جيا) إليه .. فقالت مدام (كوسيانو) : « ما أبدعكما معاً !.. » ثم اختفت لتبحث عن أداة لنزع سدادة الزجاجة التى جاءوا بها من الفندق ..

وما كادت تخرج حتى تناول (فيتونى) جيا بين ذراعيه ، وحاول أن يقبلها ! فدفعته لفورها ونهضت معلنة بلهجة جافة أنها تريد أن تعود إلى بيتها !.. لكن الشاب والمرأة – التى كانت قد عادت بالزجاجة مفتوحة – توسلا إليها ، ساخرين ، بما جعلها تعدل عن الرحيل !

وعادوا إلى الشراب ، فلم تتمالك (جيا) – وهى تشرب ، رغم ثملها – أن تقارن بين (فيتونى) الشاب القوى المتورد الخدين ، وزوجها المزيل الأصفر !.. وأعجبها فى (فيتونى) أيضاً طباعه الخشنة المجردة من المسكنة والتكلف ، الواضحين فى زوجها (البروفسور) . كان واضحاً أن (فيتونى) قد عاش عمره بين

أهل المجتمع الراقى ، وهل أدل على ذلك من ازدرائه لقواعد العرف ، ومن لهجة السيادة فى كلامه ؟

وداخلت ذهن (جيا) الثمل ، رغبة جديدة فى أن تكف عن مقاومة كل إغراء ، وعن حرمان نفسها من أية تجربة !.. وزين لها شعورها الطارئ أن تحنى رأسها للمخاطر ، ثم تغوص فيها بفضول يائس !.. ففيم الصراع وكبح النفس عن هواها ؟.. ومن أجل من ؟.. ولماذا ؟.. أخذت تحدث نفسها بهذا ، وقد غشيها ما يغشى الكثيرين ممن سئموا الاصطناع وكتمان حقيقة عواطفهم ، من فرط ما يمر بهم من فترات يعجزون فيها عن أن يفرقوا بين فكرة الفضيلة ، وفكرة الإفادة المباشرة والجزاء المحترم ، حتى لتعمى بصائرهم عن أن يميزوا بين الفضيلة وبين منفعة تنطوى على رذيلة ؟.. لقد عاشت شريفة ، فما الذى جنته من ذلك ؟.. جنت زواجاً وضيعاً تعساً ، وحياة ضحت فيها بنفسها ، وقليلا من الرجاء فى المستقبل ، بل لا رجاء !.. أليس الأجدر بها إذن أن تستمتع بالحياة ، كما توصيها مدام (كاسيانو) دائماً ، فى غير حرج ولا اكتراث ؟

وكانت وهى تقلب هذه الأفكار فى رأسها ، لا تكف عن محادثة (فيتونى) ومنادمته ، حتى غادرت صديقتها الحجرة مرة أخرى لتحضر بعض البسكويت : وإذ ذاك ، استسلمت (جيا) للقبلات ، دون ما مقاومة !

* * *

● وظلا على حالها لحظات ، فى الحجرة الصغيرة المعتمة ، العارية إلا من مقاعد صغيرة ووسائد . ثم أعلنت مدام (كوسيانو) — فى لهجة الأم الحانية المشفقة — أنها توشك أن تهوى لفرط مهاجمة النوم لها ، وأن الوقت قد حان كى يصحب (فيتونى) (جيا) إلى بيتها . وقبل الشاب أن يصدع لهذا الأمر اللطيف فى ابتهاج .. بل إن (جيا) لم تتمالك أن أحست بالغيرة ، خشية أن تصحبهما صديقتها ثم تعود إلى المدينة مع (فيتونى) ، وحدها !

لكن مدام (كوسيانو) دفعتهما إلى خارج مسكنها ، بعد تبادل تمنيات طويلة لليلة طيبة ، ووعود بتجديد هذا الحفل الصغير فى اليوم التالى !

ووجدوا نفسيهما وحيدين فى الشارع .. فسلكا طريق الخندق، بمحاذاة الجدران العالية التى تتوجها الثغرات .. وكان الجو فى تلك الفترة من شهر نوفبر عليلا ، والقمر يتوسط سماء صافية بلا سحاب ، مرسلا ضوءه الزاهى .. وأفق التلال الفسيح الذى يتبدى من خلال ثغرات الجدران ، يسبح فى ذلك الضياء الباهر . وكانت النوافذ النادرة المضاءة فى البيوت المتناثرة فى الريف تبدو متطفلة على مثل ذلك الجلال .. كان قمراً كاملا يسطع وسط السماء ، وعن يمينه كوكب (المشترى) البهى الأبيض .. وقد ارتفع من داخل المدينة نباح كلب انتشى بذلك البهاء القمرى الخارق فرفع عقيرته يثلم ذلك السكون .. وجاوبه من أحد تلك البيوت المتناثرة فوق التلال كلب

آخر ، تناهى نباحه من بعد وهو يتلاشى ويضيع عبر ذلك الفضاء الفسيح .. ووقع من نفس (جيا) هذا النباح المنفرد الواهن من الحيوان الملهوف على صحبة جنسه ، كأنه دعوة إلى الوقوف ، والإصغاء ، وتأمل الليل .. فجلست فى ثغرة تتخلل سور المدينة المنخفض ، وقفز (فيتونى) فصار بجانبها : وكان جلال الليل الساكن قد أبعد عن نفسها كل رغبة من رغبات الحواس ، وملأها شعوراً بالحاجة العاطفية إلى أن تحيط بقوامها ذراع ، وهى تتأمل المشهد ، ورأسها مسند إلى كتف جارها .. ألم يكن هذا هو الحب ؟ هكذا خطر لها : أن الحب هو لمسة يد الحبيب وهو بجوار حبيبته .. والإعجاب المشترك بالأشياء الجميلة .. والسكوت فى لحظة واحدة .. ومن ثم تيقظت فيها — تحت مطامح الغرور والمظهر السطحى المصطنع — نزعة عاطفية « إقليمية » ، عفا عليها الزمن !

وهمست : « إنى لأحب هذا النباح ينبعث عن بعد ، وهذا القمر الرائع .. ويطيب لى أن أظل الساعات ناظرة إليه .. » .. وابتسم مرافقها لهذه العبارة ، فما كان القمر عنده إلا موضعاً للاستهزاء ، وما كان يرى فيه سوى وسيلة من الوسائل العديدة المسخرة لتحقيق غاياته !.. لكنه سكت عن التعليق ، فقد علمته التجارب أن من الأفضل « ترك الماء الجارى يسترسل فى منحدره » ، وأن مثل هذا الاستسلام من المرأة يمهد لإذعان من نوع آخر !

* * *

● ولبثا على هذه الحال لحظات ، جالسين جنباً إلى جنب فى مواجهة المنظر الطبيعى الليلى الصامت .. وبين وقت وآخر ، كانت (جيا) تدير وجهها إليه ، وتلصق خدها بخده ، وهى تغمغم له ببضع كلمات الإعجاب ، والمساررة ، والخواطر ، والذكريات .. كانت تقول إنها تحس فى ضوء القمر وأمام تلك التلال السوداء ، نفس الإحساس الذى يعتريها فى الكنيسة ، فى بعض أمسيات الشتاء ، عندما لا يتبدى فى الظل غير المذبح بأضواء شموعه الصغيرة التى تحترق وسط الأزهار ، أمام صورة العذراء المذهبة التى تحوطها الظلال .. وحاولت أن تفسر له هذه العاطفة البالغة العذوبة .. عاطفة النسيان ، والإذعان المطمئن ، والفناء فى الإيمان !

وأجابها (فيتونى) فى ثقة أنه هو أيضاً أحس بهذا الإحساس ، وإن كان فى الوقت نفسه قد خاطر بتقبيلها ، فما لقى منها — كما قدر — أدنى مقاومة !.. ذلك أنها كان قد داخلها الإيمان بأنها وجدت الروح الرقيق الذى طالما بحثت عنه ، سيما وقد كان زميلها ينصت إليها بوجه يبين فيه الجد ، وعينين مفعمتين بالفهم والعطف .. ولو كان من يصغى إليها زوجها ، لسخر منها ، أو لأجابها بإحدى تلك الكلمات الرعناء التى تبدد سحر الموقف وتجعلها تخجل إذ كشفت له عن نفسها !

وغدا (فيتونى) — فى عينيها — هو الإنسان الكامل ، واقتنعت بأنها .. قد أحبته !

.. وكم من اعترافات همست بها له فى تلك الليلة ، وهما جالسان على الجدار تحت ضوء القمر !.. ولقد أصغى هو إليها باهتمام كله خشوع ، قبل أن يعقب على اعترافاتها بالقبلات !.. وما عاد أمرهما سوى لون من عبث الأطفال ، فلو أن (فيتونى) أوتى دقة فى الملاحظة لأعجب بالانتظام الآلى الذى يربط الأسباب بالنتائج ..

وأخيراً نهضا وعادا إلى الطريق ، حتى بلغا بيت (جيا) .. وهناك قبلها (فيتونى) مرة أخيرة ، قبل أن يعود إلى فندقه بخطى نشيطة ، وهو يصفر بين شفتيه لحناً خفيفاً مرحاً ..



الفصل العــاشر

● فكرت (جيا) فى اليوم التالى فيا حدث ، فلم تشعر فى نفسها بروع أو ندم ، بل رأت أن ما تذوقتـه فى تلك النزهـة كان كافياً لتبرير المغامرة !.. لكن حالتها الذهنية كانت حالة شخص يشرع فى طريق مجهولة ، يجدها ملائمة ، لكنه لا يعرف ما قد تفضى إليه فيا بعد من أخطار ، ومن ثم يتراجع باحثاً عن ضمان ، وعن مشجع !.. وهكذا كانت (جيا) فى حيرتها تبغى ، قبل أن تندفع إلى أبعـد ، أن تستمد تأييداً من سلطة ما !.. ولا حاجة إلى القول بأنها وجدت هذا العون عند مدام (كوسيانو) ، فقد قصدت إليها فى الصباح كى تفضى إليها بذات نفسها ، فوجدت منها تأييداً حاراً .. فقـد استبعدت الرومانية فى الحال من نطاق البحث – دون أدنى تردد أو تحرج – الاعتبار الأخلاقى المضحك ، واندفعت من فورها إلى الخطة العملية « الاستراتيجية » ، خطة الإقدام على العمل ، على حد قولها ، لا الجمود والشكوك العقيمة !

ولم تكن (جيا) تأمل غير نصيحة خالصة ، تصدر دون تحيز ، فإذا بها تجد « تشجيعاً » حماسياً : فإن (فيتونى) يتحلى بجميع الصفات المرغوب فيها فى مثل هذا الموقف ، فهو « رجل مجتمع » وهو يحب (جيا) ، كما أن (جيا) تحبه .. فليس السؤال إذن هو : أيمضيان بهذا الحب إلى غايته ؟ – إذ ما من مجال للريب فى هذه النتيجة –

وإنما المهم الآن هو تنمية هذه العلاقة البازغة التي عقدت الآن أواصرها ، بما يرضى الطرفين .. من وراء ظهر الزوج !

وكانت التجارب الطويلة تزود مدام (كوسيانو) بما يؤيد هذه النظرية من حجج بليغة لا ينضب معينها : فليست هذه بالمرة الأولى التي تقصدها فيها امرأة قلقة .. وما من نصيحة لها اتبعت ، إلا وسارت بمقتضاها الأمور على خير ما يرجى .. وها هي تقدم لجيا مشروعاً مدروساً لا ينقصه غير التنفيذ !

ولو أن (جيا) كانت أقل اضطراباً ، لاستطاعت أن تتبين في أعماق نفسها عاطفة يشوبها الخجل ، ممتزجة بالندم والاشمئزاز .. لكن مدام (كوسيانو) لم تكن لتدع لها الفرصة الكافية للتعمق في تقليب هذه الأحاسيس على وجوهها ، بل راحت تزين لها جواً جديداً يشملها .. جواً تبدو الجرأة الخطرة فيه عملا هيناً مشروعاً !.. إذ لم يكن عند تلك المرأة أدنى ريب في أن الزوجات يجب أن يخن أزواجهن ! – سيما إذا كان هؤلاء من طراز (فاجنوتسى) – فقد كان ذلك في نظرها قانوناً طبيعياً ، أشبه بشروق الكواكب وغروبها !.. ومن ثم فمن العار على (جيا) أن تخلق استثناء مناقضاً لهذه القاعدة العالمية اللطيفة !

.. وتعود المرأة بعد ذلك إلى الثناء على (فيتوفى) ، فهو عندها الرجل المنشود لإسعاد صديقتها .. ثم تقترح في النهاية على (جيا) أن

تكون مقابلتها له في بيتها هي – الصديقة – تحاشياً لكل ريبة !

* * *

● لكن هذا الاقتراح ظل معلقاً في الهواء برهة ، ذلك أن (جيا) التي أدارت رأسها الغواية ، لم تأنس من نفسها – مع ذلك – الشجاعة على القبول .. ورأت مدام (كوسيانو) ألا تلح عليها في هذا الصدد ، بل حولت دفة الحديث من فورها إلى موضوع آخر ، وعنيت بتفادي العودة إلى ذلك الاقتراح ، حتى لقد خشيت (جيا) أن تكون قد أهانت صديقتها ، وحرمت نفسها – بحيائها الزائف – من عون جزيل النفع !.. وعذبتها هذه الفكرة ساعات ، فعادت بعد ظهر اليوم نفسه إلى بيت صديقتها ، كي تذكرها باقتراحها وتعرفها بأنها تقبله !

ودخلت البيت ، فلم تجد غير (فيتوفى) !.. كان جالساً وأمامه فنجانا قهوة فارغان . وقال لها : إن مدام (كوسيانو) قد ذهبت تحمل « أباجورة » صنعتها إلى بيت عميلة ، لكنها ستعود قبل المساء :، وتبينت (جيا) الشرك ، وخطر لها – بعد أن أبدت ظنها تلك الابتسامة الساخرة التي بدت على وجه الشاب – أن تنسحب في الحال .. لكنه أمعن في التوسل إليها ، وأقسم أن يلزم حدود التعقل ، فوافقت على البقاء ..

وكان يغدو ويروح في الشقة كما لو كان في بيته ، وأجبرها على

أن تخلع قبعتها .. بل إنه وجد فى المطبخ زجاجة شرابٌ خفيف لم تفض سدادتها بعد ، كأنما قد اشتريت فى اليوم نفسه ، فجاء بها وجلس بالقرب منها .. ثم نسى قسمه ، فقبلها !

وهنا أدركت (جيا) ما سيحدث .. فزايلها فجأة كل تحفظ ، ولم تعد تفكر فى غير الإخلاص لنفسها ! وعاودها الإحساس الذى تملكها ليلة أمس فى ضوء القمر ، فبدا لها أنها تستطيع أن تقدم لفيتونى دليلا على صدق عاطفتها أقوى من هبة الجسد ، وهى ليست سوى هبة ضئيلة إذا قورنت بهبة القلب ، التى قد تتم عنها إيماءة أو كلمة .. ولكن ، واأسفاه !.. لقد شاء سوء طالعها ألا تكون كلمات الحب التى جادت بها قريحتها سوى كلمات جوفاء ، معادة ، زائفة ، وإن خيل لها أنها كانت عنوان الإخلاص !.. لم تكن روحها هى التى تتحدث إلى (فيتونى) ، بل روح أخرى مستعارة من السينما ، والمجلات الشعبية ، والروايات الرخيصة !.. وهكذا انتقم لنفسه الذكاء المحتقر !.. وإذا الإخلاص ، ووقدة الدم والحماس المنبعث من أعماق نفس مجربة ، تترجم عنها كلمات رخيصة مستهلكة شبيهة بتلك الملاليم التى ترن فى جيب ذلك الفقير الذى تسولها !

* * *

● وفى الأيام التالية ، هنأ (فيتونى) ومدام (كوسيانو) نفسيهما على بعد نظرهما .. فكان الأول يشبع رغبته التى أثارتها فيه (جيا)

منذ زمن ، وكانت الثانية تشهد نصائحها تذيع ، وخدماتها المريبة تقبل !.. أما المخلوقة الوحيدة التى لم تكن راضية عن نفسها ولا عن الآخرين ، فهى (جيا) !.. فإنها لم تكن قد عرفت عنفوان الشهوة الحسية ، وإنما كانت فى مشاعرها نحو (فيتونى) أقرب إلى الحنان والعاطفة الباردة .. فلم يكد ينقضى أسبوع حتى تبدى لها الطابع « السطحى » لعلاقتهما الفاترة !.. كما أن (فيتونى) — الذى لم يكن بطبيعته رقيق الحاشية — لم يكد يطمئن إلى « غزوته » حتى سئم ما كان قد تكلفه نحو (جيا) فى البداية من تلطف وزلفى ، ولم يعد يتحرج من الاعتراف — فى صراحة وفظاظة — بخيبة أمله ! لقد ظن أنه واجد عندها نشوة الحواس والوجد المفرط ، فإذا هو مغلول إلى امرأة من نساء الأقاليم ، تنقصها التجربة ، فوق أنها باردة العواطف ساذجتها ، تكثر من الحديث عن الحب ، وبلهجة من وحى الخيال الواهم لم تعجبه .. فكان ذلك يخيفه من أن تتعلق به ، وتغار عليه !.. فى حين أن كل ما أراده إنما كان « مغامرة » قصيرة ممتعة ، وليس هذا المأزق « الجدى » الذى زج بنفسه فيه !

وقد كان لمخاوفه ما يبررها فى الواقع ، فإن (جيا) — مع وعيها ببرودة علاقتها — كانت مهيأة بطبيعتها للتعلق به والتوهم أنها تحبه ، جبناً منها وفراراً من عزلة حياتها ... وما كانت لتقوى على فصم علاقتها معه بعد أن اندفعت فى ذلك الطريق الأثيم ، اندفاع اليائسة المحرومة من الرجاء .. ومع ذلك ، فهى لم تكن أقل إدراكاً من

(فيتونى) لخلق مدام (كوسيانو) .. وإذا كان قد وسعها – حتى ذلك الحين – أن تعتبر خشونة الشاب وقسوته ، بساطة وصراحة ، إلا أنها لم تستطع أن تنظر بنفس هذه النية الطيبة إلى الرومانية .. فما أن زالت اللهفة الأولى حتى لم يبق بينهما سوى علاقة التواطؤ المريب !.. بل بدأت (جيا) تكتشف كل عيوب تلك المرأة بجلاء مروع ، كما لو كانت تراها خلال عدسة تكبر المرئيات وتشوهها !.. وعندئذ استبدت بها الدهشة لكونها لم تر « صديقتها » منذ الوهلة الأولى على حقيقتها !.. وصارت لا تخلو بها إلا وتحس بمشاعر متزايدة من الخزى لا تقوى على احتمالها . لقد كان (فيتونى) مخلصاً ، بطريقته الخاصة ، وكان خطأ استسلامها له يقع على عاتقها هى .. أما تلك المرأة (كوسيانو) ، تلك الناعمة المعسولة الكلمات ، فلم تكن سوى الخديعة البشعة مجسمة ! كانت تحس بأنها زائفة ، مخاتلة ، قادرة على اقتراف كل الشرور .. بل كانت شريرة بكل معنى هذه الكلمة !..
وكان (فيتونى) يشاركها نفورها من الرومانية ، فلقد أصدر حكمه عليها منذ النظرة الأولى ! لكنه اضطر إلى مسايرة (جيا) فى آرائها وميولها ، لأن مصلحته كانت تقتضى ألا يبوح برأيه الخاص !.. أما الآن ، فقد أصبح يعتبر مدام (كوسيانو) من أكبر منغصات مغامرته السيئة .. ولم يكن يدخر وسعاً فى إيضاح هذه الحقيقة لجيا كلما شكا لها صديقتها !

* * *

• وكانت (جيا) تؤثر ألا تتحدث عن علاقتها بفيتونى ، لكن مدام (كوسيانو) كانت – بفضولها الذى لا يعرف الحياء – تريد أن تعرف كل شىء ، فكانت تستجوبها ، وتوصيها ، وتفسر لها ، وتنصحها ، وتحذرها .. تفعل ذلك كله دون أن تسألها (جيا) منه شيئاً ، متخذة لنفسها مركز الحامية المخلصة « المحايدة » ، المجردة من كل مصلحة – بل مركز الأم ! – وإن كانت حمايتها فى الواقع من قبيل الحماية المنطوية على التهديد والابتزاز !

وحدث ذات يوم أن ثارت (جيا) على هذا الفضول ، لكن ثورتها كانت قصيرة العمر ، لم تلبث أن انطفأت بمجرد أن تخلت مدام (كوسيانو) فى الحال عن رقتها المعسولة ، وكشرت عن وجه قاس فظ يخيف حقاً من يراه .. وهى تجيبها : « آه !.. أهكذا تكلمينني !؟ » .

قالت ذلك بهدوء ، ويدها الممتلئة ، التى كانت فى العادة رخوة طرية ، تقبض بصلابة على ذراع (جيا) ، كمخلب النسر : « أهكذا تجاوبينني .. أنا التى ساعدتك ولم تفعل لك إلا الخير ؟! .. إنك لجاحدة للجميل ، لكن حذار ! فأنا أعرف عنك أكثر مما ينبغى ! » .

وأدركت (جيا) ما وراء تلك الكلمات من تهديد بالغ الوضوح ، بارد التدبير ، فأحست أنها توشك أن تفقد وعيها رعباً .. ومن ثم فقد غيرت لهجتها على الفور ، معتذرة بتوتر أعصابها ، وتلطفت مع المرأة كى تهدئ من ثائرتها !

وتفاقم طغيان مدام (كوسيانو) فى الأيام التالية ، فصارت تفرض على (جيا) شراء « أباجوراتها » القبيحة المنظر بثمن مرتفع ، وتقترض منها نقوداً ، وتظل تبدى إعجابها ببعض ثياب (جيا) أو قبعاتها ، بلهجة إيحائية ذات مغزى ، كى تتزل لها عنها !.. كما خصت (فيتونى) أيضاً بثناء من نوع آخر ، فيه تظرف ودلال ، وبأسلوب الفتيات الصغيرات .. وكان الشاب قد منحها فى البداية هدايا كثيرة ، أما الآن ، وبعد أن خيبت (جيا) رجاءه ، فما عاد يجد لديه رغبة فى إنفاق شىء .. فصار يجيب الرومانية بلذعات قاسية جعلتها تخشى بأسه ، فبدأت تكرهه وتحمل عليه ، وتظهره لجيا فى صورة شائهة ، واصفة إياه بأنه « حيوان غاشم » !.. وبأن واجب (جيا) يحتم عليها أن تهجره ، سيما وأنه يعيش من موارد غير مشروعة : إما عالة على النساء ، أو من الغش فى القمار !.. وبلغ من ضيق (فيتونى) بما ترميه به أنه قبض ذات يوم – فى حضور (جيا) ، المشمئزة ، المذهولة – على معصمى الرومانية ، وهددها بالانتقام منها إن هى استمرت فى تشويه سمعته ؟ ثم قرن تهديده بأشد صفعتين تلقتهما فى حياتها ، قائلا : إنه هو أيضاً يعرف الكفاية عنها ، وأن له من النفوذ ما يكفى لإعادتها إلى وطنها ، وبغير إمهال !.. فما كان من المرأة إلا أن أذعنت ، وقد شحب وجهها .. بعد أن أسقط فى يدها !

وهكذا ران على هؤلاء المتواطئين الثلاثة ذلك الجو المحتوم الذى

يظلل مثل هذه الروابط : جو المحاذرة ، والتهديد ، والحقد ! لكن (جيا) – أكثر الثلاثة تجرداً من السلاح ، وأشدهم حساسية – كانت صاحبة النصيب الأكبر من الألم !

* * *

● وذات يوم ، أعلن (فيتونى) أنه قد أنجز مهمته فى المدينة وباع أرضه التى كان يملكها فى ضواحيها ، وأبلغ (جيا) أنه قرر الرحيل !.. فتلقت هى هذا النبأ فى سكون مجرد من الدهشة ، الأمر الذى ضايق (فيتونى) ، إذ كان يتوقع – بدافع من غروره – مشهداً روائياً ، تسيل فيه الدموع !.. وإذ ذاك أحس أسفاً ينبثق فجأة فى نفسه ، كما لو كان قد تنبه ساعتئذ فقط إلى مزايا (جيا) !

وتم الوداع فى إحدى حجرات مدام (كوسيانو) الصغيرة ، وكانت الرومانية – التى لم توجه كلمة واحدة إلى (فيتونى) منذ هددها وصفعها – قد لاذت بحجرة أخرى ، وظلت تصرخ بأعلى صوتها ، تسأل (جيا) أن تخبرها ، بمجرد رحيل هذا الشخص !

ولم يكن (فيتونى) راضياً عن الصورة التى تم بها قطع علاقته بجيا ، ولم يعد يدرى إن كان محقاً فى هجرها أم لا ؟!.. بات يخشى – إذ بدت له فى هذه اللحظة بمظهر جديد ، مثير ومرغوب ! – أن يكون قد أساء فهمها ، وألا يكون قد استمتع منها بما فيه الكفاية !.. وساورته فكرة : ألا يقطع الخيط الموصول بينهما كل القطع ، بل

يحتفظ بهما على سبيل الاحتياط ، ليوم تراوده فيه الرغبة فى استردادها !.. ومن ثم اقترح عليها أن يتراسلا !.. وكان اقتراحاً يستغرب صدوره من رجل حيوانى النزعة ، ناقص الثقافة والتهذيب مثله !.. غير أن (جيا) أجابته ، فى برود ، بأنها لا ترى ضرورة لمثل هذا التراسل ، فما عاد عندهما — كعاشقين — ما يقوله أحدهما للآخر .. وماذا عساهما يكتبان فى رسائلهما ؟!

وأمام هذا الجفاء الحاسم ، أدرك (فيتونى) أن مغامرته «الريفية» قد انتهت إلى غير رجعة !.. وحدث نفسه وهو يهبط السلم : « يا للخسارة .. كانت على كل حال أفضل من كثيرات غيرها ! » .

وكان ذلك آخر خاطر وجهه ذهنه إلى (جيا) !

* * *

● وسعت (جيا) بعد رحيل (فيتونى) إلى حجرة الرومانية فى أقصى البيت ، فوجدتها جالسة على سريرها ، وسط كومة من الخرق المتناثرة ، وشعرها ملىء برقائق الورق التى تحفظ له تموجاته ، أثناء النوم ، وصدرها مضغوط فى درع قذر ممزق ، ملفوف فى قميص من الحرير المصفر ، وهى مشغولة فى «نظم» لآلىء إحدى « أباجوراتها الخالدة » !.. وكانت بادية الشحوب ، وهى تضم شفتيها الرفيعتين المتقلصتين على لؤلؤتين ، وقد بدا وجهها أشبه بوجه وحش شرير ؟.. فارتجفت (جيا) لهذا المشهد ، وناجت نفسها : « لقد رحل (فيتونى) وبقيت أنا وحدى مع هذه المرأة ! » .

وفى تلك اللحظة .. نهضت مدام (كوسيانو) ، كما لو كانت قد حدست هذه الفكرة ، ونظرت إلى (جيا) بعينين يتطاير منهما الشرر ، وقالت بصوت جاف كصوت ببغاء ، وأسنانها مطبقة فى غيظ : « أخيراً رحل .. رحل هذا الوغد .. وبات فى وسعى أن أتنفس ! » .

ولم تجب (جيا) ، إذ لم تكن تضمر حقداً لفيتونى رغم خشونته ، ورغم أنها لم تحبه قط . ولم تجد من نفسها استعداداً للحديث عنه مع مدام (كوسيانو) ، فاجتازت الحجرة دون أن تتفوه بكلمة واحدة ثم أسندت جبينها إلى زجاج النافذة : وكان الجو السيء قد عاد يثقل على الزقاق ، وأخذت الأحجار السوداء فى البيت المواجه تلمع من فرط الرطوبة ، وإن ظل المطر يتساقط رذاذاً خفيفاً حتى ليصعب تمييز قطراته .. وما لبثت مدام (كوسيانو) أن قالت دون أن تقطع عملها : « لست أحب كثيراً موقفك منى فى المدة الأخيرة .. وأحب أن أنذرك يا عزيزتى بأننى لن أدع أحداً يمر فوقى ! » .

وبدا صوتها ، وهى تتحدث ، أشبه بنسمة من ريح الشتاء نفذت من خلال ثقب الباب فأصابت ظهر (جيا) بوخزتها الباردة !.. والتفتت (جيا) ، ثم قالت وهى تسند ظهرها إلى النافذة ، وتنظر إلى الرومانية فى اعتداد هادئ ، وإن يكن حزيناً : « أما كفاك أن جعلتنى أقدم على ذلك الجنون ؟.. لقد جعلتنى أخون زوجى ، وهو أنبل رجل فى العالم !.. فماذا تريدين أيضاً منى ؟! » .

وكانت هذه اللهجة جديدة عليها – حتى لقد دهشت هى نفسها منها – كما كانت العاطفة التى تعبر عنها جديدة هى الأخرى ، فما حدث لها من قبل أن تكلمت عن زوجها بهذه اللهجة !

وقذفتها مدام (كوسيانو) بنظرة مذهولة ، وهى تحاكى صوت الببغاء : « تش ! تش ! تش ! » .. ساخرة منها ، قبل أن تقول لها فى لهجة أرق : « فيم شطح فكرك ؟.. إن هى إلا ليلة تنعمين فيها بنوم طيب ، ثم يعاودك هدوء نفسك ! » .. وكانت قد فرغت من لضم لآلئها فوضعتها جانباً ، ثم دنت من (جيا) فطوقتها بذراعيها ، قائلة : « تعالى هنا .. اجلسى بالقرب منى وحدثينى عما بك : لم أنت حزينة هكذا ؟ أيكون ذلك بسبب رحيل هذا الرجل الفظيع ؟ » .

وتولى (جيا) نفور شديد يكاد يبلغ مبلغ الاشمئزاز ، من ملمس تلك الذراع ، ومن لفح تلك الأنفاس ، فأجابت دون أن تتحرك ، وعيناها ثابتتان فى اتجاه مستقيم أمامها : « كل ما بى أنى محزونة ! » .. فهزت مدام (كوسيانو) رأسها قائلة : « إنه تأثير الوحـدة ! – واسمحى لى أن أقولها لك – فالوحدة هى التى تبعث فى نفسك هذه الكآبة والحزن ! » .

.. ثم أضافت بعد صمت قصير ، كما لو كانت قد تذكرت شيئاً بمحض المصادفة : « أتعرفين فيم كنت أفكر ؟.. إنها فكرة رائعة .: فلكى لا تحسى بالوحدة ولا تضيقى بسأمك ، سأجىء فأقيم فى بيتك ، لتأنس إحدانا بالأخرى ، ونسخر معاً من كل (فيتونى) فى العالم ! » :

صعقت (جيا) !.. واستقر بصرها على الأرض فى رعب ، قبل أن يسمعها أن تقول فى صوت مهزول : « لن يرضى زوجى ! » .. فهزت مدام (كوسيانو) كتفيها فى استخفاف ، وقالت : « هراء !.. ما عدت أفهمك يا جيا ! إن زوجك يفعل كل ما تريدين .. ستقولين له إنك فى حاجة إلى صحبة ، وإنه لحق ، ولن يجد حجة يعارضك بها . إنك طفلة يا عزيزتى ، ولا تعرفين الحياة .. إن الأزواج ينبغى أن يؤخذوا بالحيلة ! » .

كان مثل هذا القول من مدام (كوسيانو) يبدو لجيا فى الماضى مليئاً بالحكمة البارعة المقنعة ، أما الآن فإنه يرعبها بقدر ما يرعبها شخص تلك المرأة ذاتها !.. وقالت تجيبها : « ولكن لنفترض أنه لم يقبل فكرتك ! » .. فقالت المرأة : « فى هذه الحالة ، يا عزيزتى ، سأعرف فى الحال من أين تأتى الضربة ! إنى أكرر لك : زوجك يطيعك .. فإذا لم يرد ، فإنما يكون ذلك لأنك أنت لا تريدين ! » .

– حسناً ! لنفترض أنى ، أنا ، لا أريد !

جازفت (جيا) بهذا الرد ، فصاحت مدام (كوسيانو) متوددة : « لا أستطيع أن أصدق هذا ، فنحن صديقتان حميمتان ! لماذا تجعلين منى عدوة لك ؟ أنا أعرف الكثير عنك ، فإذا أردت أن تخذلينى وتتخلى عنى ، ففى استطاعتى أن أوقع بك أذى كبيراً ! فماذا يفيدك هذا ؟ فى وسعك أن تتصورى إلى أى حد ستعذبين .

وسيؤلمني ذلك أنا أيضاً ، فإني أود – إذا كان ذلك ممكناً – أن أعيش في سلام مع الجميع !.. وأؤكد لك أنه يؤلمني كثيراً مجرد التفكير في احتمال ما يمكن أن يحدث .. لو وقف زوجك على حقيقة ما وقع في بيتي ! » .

.. وكان جسد (جيا) قد أخذ يرتعد كله، فقالت مذعورة : « أفي نيتك إذن أن تذهبي وتروي له ..؟! » .. لكن مدام (كوسيانو) قاطعتها في خبث : « هلم ! هلم ! إن هو إلا كلام يقال !.. فلنكف عن الحديث في هذا الموضوع .. والآن ، أجيبي : متى يناسبك أن أحضر إلى بيتك .. اليوم ؟.. غداً !؟ » .

قالت ذلك وعادت تطوق (جيا) بذراعيها ، فأجابت هذه دون أن تتحرك : « غداً .. إذ يجب أن أخطر زوجي .. » ، فقالت الأخرى في اهتمام : « حسن جداً، فلنحرص على ما يلائم ظروفك .. ثم إن إرجاء الأمر إلى غد سيجعل عندي متسعاً من الوقت لإعداد حاجياتي .. وهل تعرفين أين سيطيب لي أن أقيم ؟ في الطابق الأول .. في الحجرة التي تشرف على الحصون ! » .. فعبست (جيا) وهي تعقب على قولها : « لكنني كنت أعتزم أن أجعل منها حجرة أطفال ! » .. فنظرت إليها الأخرى بذهول مصطنع ، ومبالغ فيه ، وقالت : « جيا ! إنك لن تجعليني أعتقد أنك من فساد الذوق بحيث تنشدين الأطفال !.. وأطفال السيد (فاجنوتسي) بالذات ! » .

وكانت (جيا) تعرف منذ أيام أنها حامل ، وتعرف – من حساب الأشهر – أن والد الجنين لا يمكن أن يكون إلا زوجها ، فملأتها لهجة مدام (كوسيانو) وتعبيرها كراهية عنيفة ، بحيث عانت الكثير من الجهد كي تمنع نفسها من أن تهجم عليها وتمزق بضربات أظافرها هذا الوجه الماكر المعسول !.. لكنها قمعت ميلها أخيراً وقالت في كمد : « ليكن .. ليكن : ولكن ينبغي أن أحدث زوجي في الأمر أولا ! » .



الفصل الحادى عشر

● لم تكد (جيما) تعود إلى دارها فى عصر ذلك اليوم ، حتى استلقت على سريرها ، وسحبت الغطاء على جسمها ، ولم تحر حراكاً حتى المساء . وكانت حجرتها تقع فى الطابق الأول ، وقد طليت بالجير .. حجرة باردة ، كئيبة ، ذات أثاث أسود ، نسب زوراً إلى القرن الخامس عشر !.. وكان الذباب الكليل يتهافت على زجاج النافذة ، والمطر ينهمر فى الخارج .. و (جيما) ترتجف !

كان الخوف والاستنكار قد زايلاها ، وتولاها شعور بظلم مخز ، مقيت .. وكأنما حكم عليها بأن تعيش مغلولة إلى جثة يدب فيها العفن !.. وكانت تعانى إلى جانب الألم المعنوى ، ألماً جسدياً .. تقززاً بدنياً كان يبعثه وجود مدام (كوسيانو) !.. وعرضت عليها مخيلتها المهتاجة ، المنفعلة ، صورة نابية لحياتها المنزلية بعد أن تفسدها هذه الدخيلة المدنسة .. وللمرة الأولى شعرت بالغيرة على هذا البيت الذى ما أحبته قط !.. فشعرت وهى تتصور تلك الـ (كوسيانو) فى الحجرة المخصصة لأطفالها ، كأنها دودة ضخمة رخوة مائلة إلى البياض ، تسمن وتتضخم ، وتملأ الحجرة برائحتها ، وبألف نوع من الأوساخ ! وكانت تعرف أن هذه المرأة تشرب الخمر ، وتصبغ شعرها ، وتتطيب ، فاشتد غثيان نفسها وهى تتصور فى تلك الحجرة كل تلك القنينات الصغيرة ، السوداء ، الكئيبة ، وقد صفت على

نضد ، بينما تناثرت على ظهور المقاعد ثياب ملوثة بالعرق .. ورأت فيما كانت ترى بعين الخيال ، صفاً من الأحذية الشوهاء وراء الباب ، كما تصورت مدام (كوسيانو) نفسها وهى تظهر كل صباح لتلقى تحية اليوم الجديد ، بوجه ملطخ بالأدهنة ، ورأس مغطى بالورق الذى يستخدم فى عقص جدائل الشعر ..

على أن أقسى ما عذب (جيما) من هذه الرؤى التى تمثلت فيها المستقبل القريب ، هو التفكير فى « استمرارها » ! إذ خيل إليها أنها لن يسعها — مدى الحياة — أن تتخلص من هذه الحشرة التى تمتص الدماء :: فاعتصر قلبها إزاء هذه الفكرة خبال خفى ، خيل إليها معه أنها توشك أن تجن !

ولم يصدها عن الاعتراف بالحقيقة لزوجها — الذى استبانت إذ ذاك فقط مناقبه — وعن مناشدته الصفح والمغفرة ، سوى خوفها من أن تفقده ، ومن أن يؤدى ذلك بها إلى العودة إلى ذلك الزقاق الذى نشأت فيه ، وإلى بيت أمها ونزلائه !.. ولم تكن بطبعها شجاعة ، فأذعنت فى يأس لشقائها وذعرها من تلك المرأة (كوسيانو) ، وتولاها شعور جائع « هستيرى » بأنها .. حقيرة !

* * *

● وفى تلك الليلة ، أفضت إلى زوجها — وهما يجلسان إلى المائدة — بأنها سئمت وحدتها فى البيت ، فقررت أن تدعو مدام (كوسيانو) للإقامة معهما . وتوقعت أن يعارضها — بل تمنت ذلك ! — ولكنه

كان يحبها ، وكان نادماً على أنه لم يف بوعده لها بشأن الإقامة فى روما ، كما كان حريصاً على إرضاء كافة رغبات زوجته .. ثم إنه كان قليل المعرفة بالمرأة الرومانية — التى لم يرها إلا فى ظـروف نادرة — فوق جهله بالطباع البشرية !.. فاجتمعت كل هذه العوامل لتجعله يكون لنفسه عن المرأة صورة مستلطفة ، توحى بالألفـة وحسن المعشر . فهى عنده امرأة جمة النشاط ، مسلية ، مرحة ، قادرة على أن تؤنس (جيا) ، التى لاحظ فى العهد الأخير صمتها ، وما كان يبدو عليها من هم !.. ومن ثم أبدى لفوره موافقته — التى لم ترق لجيا — قائلا : « الواقع أننى فكرت فى ذلك من قبل ، ولا أدرى كيف لم أحدثك فى الأمر .. » .. ثم أردف قائلا : إن فى إيوائها عملا من أعمال البر أيضاً ، إذ كان قد علم من (جيا) أن مدام (كوسيانو) فقيرة ، معوزة ..

ووصلت مدام (كوسيانو) فى اليوم التالى — حسب الاتفاق — بمتاعها المؤلف من حقيبة زرية الشكل من الكرتون ، مليئة بالخرق البالية ، وبضعة صناديق من الورق المقوى ربطت إلى بعضها بالخيط .. فبدا إيواؤها حقاً نوعاً من الإحسان !.. وأخذت من فورها تتودد إلى (فاجنوتسى) ، الذى تشجع وكلمها بالفرنسية : ألقى عليها وابلا من الأسئلة عن رومانيا ، أكثرها عن بعض الأساتذة ورجال العلم الذين كانت تربطه بهم علاقة وثيقة .. وآلت هذه الألفة (جيا) ،

فلم تنبس ببنت شفة وهم حول المائدة ، تاركة زوجها والدخيلة يتبادلان الحديث والدعابة ..

ثم شاءت مدام (كوسيانو) أن تطوف بحجرات البيت عقب الغداء مباشرة ، وعلى أثر ذلك أعلنت أن البيت ليس مريحاً كما ينبغى أن يكون : إذ لابد هنا من أريكة ، ولابد هناك من مقعد « فوتيل » .. وأن الواحـدة من « أباجوراتها » لكفيلة بأن تضفى رونقاً على هـذا الركن .. كذلك وجدت مادة للحديث عن الخدمة ، فاستدعت الطاهية والوصيفة وزودتهما بأوامر وإرشادات ، وأخذت تتصرف — على العموم — تصرف سيدة الدار ، بينما كانت (جيا) تنتفض غضباً وحنقاً !

* * *

● وروت مدام (كوسيانو) لفاجنوتسى أنها كانت تملك فيما مضى قصراً فى « بوخارست » ، وكان لها خدم وحشم ومركبات مطهمة !.. ولم يصدق (فاجنوتسى) من قولها كلمة واحـدة ، لكنه أصغى من قبيل التسلية ، حتى لقد تأخر بعد الغداء عن الخروج أكثر من المعتاد .. وقبل أن يغادر البيت أوصى الرومانية فى لهجة رجاء أن تبذل وسعها للترويح عن (جيا) ، فأجابته بأن لا مجـال للأحزان حيث توجد هى !.. فانصرف (فاجنوتسى) مفعماً بالطمأنينة .

أما وقد بلغت المرأة بذلك غايتها ، فقد انحصرت رغبتها بعد ذلك فى أن تعيد عقد أواصر الصداقة مع (جيا) .. فقد كانت من الدهاء بحيث لا يفوتها أنها بالمودة والثقة تبلغ ما لا تبلغه بالضغط والابتزاز !.. لكن (جيا) لم تأخذ المسألة هذا المأخذ ، ولو أنها شاءت أن تفعل لما وسعها أن تقهر اشمئزازها ، ولا أن تنظر إلى صديقتها القديمة بغير ذلك الحقد المتأجج الذى لا يفتر استعاره !.. ومن ثم لم يكد زوجها يخرج حتى نهضت عن المائدة وغادرت قاعة الطعام بترفع ، دون أن تنظر حتى إلى علبة السجائر التى كانت الأخرى تمد بها يدها إليها !

على أن مدام (كوسيانو) جاءت تدق بابها بعد فترة ، فلما لم تظفر بجواب ، أدارت المقبض .. لكنها ألفت الباب موصداً بالمفتاح ! وسمعتها (جيا) وهى مستلقية على سريرها تناديها مراراً ، فى لطف أول الأمر ، ثم فى غضب : وأخيراً سمعتها تبتعد ، فلبثت حبيسة فى حجرتها طوال العصر .. حتى وثقت من أن الرومانية قد خرجت ، وعندئذ ارتدت ثيابها فى عجلة وهرعت إلى بيت أمها !.. كانت تريد أن تفضفض عن صدرها بعض همها ، وتلتمس النصيحة.. لكنها ما أن رأت تلك الأم العجوز التى احتفظت عيناها بلمعة الشباب وفاضتا بالطيش البرئ ، حتى أدركت أنها لو تكلمت لكانت كمن تفشى سرها لطفلة فى الثانية عشرة !.. فاكتفت بالإفضاء إليها بنبأ حملها .. وكم فرحت الأم بذلك النبأ ، حتى لقد غمرت ابنتها بعطفها..

ثم انتقلت بالحديث إلى موضوع أسرة (باولو) . كان رأيها الراسخ أن زواج (جيا) قد حال دون وقوع كارثة منكرة ، فمن حقها على القوم أن تدعى لقضاء الصيف فى « الفيلا » . ومن يدرى ؟ قد يتاح لها هناك أن تحظى بحب شخصية رفيعة المقام ، فتظفر لنفسها — حتى وهى زوجة لفاجنوتسى — بمكانة فى المجتمع الراقى !

وراحت تتكلم وابنتها تصغى إليها ، فى ضيق وصبر نافد ، وهى تحس بأنها أصبحت بعيدة عن أن تحفل بهذه الأشياء التى طالما أثارت مشاعرها فى الزمن القديم !.. وما أن سنحت لها أقرب فرصة ، حتى استأذنت أمها فى الانصراف وعادت إلى بيتها..



● ولم تحمل الأيام التالية أى تحول فى الموقف .. سوى أن مدام (كوسيانو) أفهمت (جيا) ، بكلمات مقتضبة ، مفعمة بالمعانى المضمرة — بل وفى وجود (فاجنوتسى) الذى لم يفته منها شيئاً ! — أنها غير قانعة بمجرد أن وجدت فى بيتها مأوى ، بل إن لها عليها حقاً فى الرعاية ، وفى المعاملة بلطف !

واضطرت (جيا) إلى مجاذبة الرومانية الحديث ، والابتسام لها — خلال اجتماعهما حول المائدة على الأقل — غير أنها ظلت تتجنبها فى غير هذه المناسبة ما استطاعت .. وإن لم ترحمها عزلتها من الإحساس الدائم « بوجود » الأخرى ، فكأنها جرح قبيح ، بارد ،

رطب ، لا يسبب ألماً لكنه لا يبرأ ، ومن ثم يخفيه صاحبه تحت ثوبه ، دون أن ينساه أو يجرؤ على كشفه والنظر إليه !.. وحين تحتويها حجرتها ، لم تكن (جيا) تكف عن إرهاف سمعها للأصوات الصادرة من الحجرة المجاورة ، التي لم تدخلها منذ سكنتها مدام (كوسيانو) ، والتي كانت تتصورها قذرة سوداء مفعمة بالروائح الكريهة ، تلوث أرضها وجدرانها لطخ عفنة !.. وكانت تقول لنفسها أحياناً في تقزز : « إنها الآن تخلع ملابسها ! » ، ويخيل إليها أنها تراها، بيضاء مرتجفة كقطعة من دهن معلقة في خطاف جزار !.. أو تقول لنفسها في الليل : « إنها نائمة ! » ، وتروح تصغي بنفور طاغ إلى غطيط المرأة ، وتخال ذلك الصوت يقسو على أعصابها وكأنه خطاب ابتزاز جديد ، أو نذير يعكر عليها صفو النعاس !.. ولم تكن هذه التخيلات والأصوات هي أفظع ألوان العذاب الذي صارت تعانيه (جيا) ، بل كان أقساها ذلك الإحساس بوجود المرأة !.. ولكن أين كانت علامات هذا « الوجود » ؟ أفي البيت ، أم في وعي (جيا) المضطرب ؟.. كانت تكتشف لأول مرة في حياتها أن في الدنيا – إلى جانب الأشياء المادية التي يمكن إقصاؤها أو القضاء عليها – عالماً مثالياً تحب الروح أن تتأمل نفسها فيه ، وكأن صورتها تنعكس على ماء صاف .. وأن لا سلام للروح ما لم تجد هذا العالم شفافاً نقياً !

* * *

● وعلى غير وعي منها ، تجاوز بغض (جيا) لمدام (كوسيانو) شخص تلك المرأة ، وامتد ليشمل كل أخطاء ماضيها هي ، وكل آمالها السالفة !.. وكما يحدث للشخص المسموم إذ تخلصه نوبة عنيفة في بضع ساعات من سموم امتصها جسده في سنوات ، فإن استنكارها لوضعها الراهن وتقززها منه في تلك الأيام الكئيبة من الشتاء ، لم يخلصها من إعجابها السالف بالرومانية فحسب ، بل خلصها أيضاً من كافة النزوات المنحرفة التي أعمت بصيرتها منذ فترة المراهقة !.. وفي عذاب الألم أخذت تبرأ من كثير من الانحرافات المحمومة .. وكان اضطرابها الشامل يدفعها نحو فجر نور جديد ، نور لم يداخلها شك في أنه سيظل محدوداً ، واهناً ، في نطاق الأخطاء والذنوب التي اقترفتها ، ولكنه مع ذلك خير من الجنون البريء الذي أصاب أمها ، ومن الفساد الذي أتلف مدام (كوسيانو) !

وكانت الرومانية كلما أحرزت انتصاراً على إهمال صديقتها لها ، أمعنت في الجرأة .. فإذا بهذا الإمعان بالذات يتيح لجيا الفرصة التي لم تسع إليها أو تفكر فيها : فرصة التخلص من وجودها !.. كان قد انقضى شهر على هذه الحياة الثلاثية – الزائفة ، القاسية – حين أعلن (فاجنوتسي) ذات مساء على المائدة ، في مفاجأة تتمشى مع غريب أطواره ، أنه قد فاز آخر الأمر بذلك الكرسي الذي كان يسعى إليه منذ أمد طويل في جامعة روما !

ولم تخف (جيا) فرحها بهذا النبأ ، فنهضت عن مقعدها ،

وسعت إلى زوجها فطبعت على صلعته قبلة .. فقد كان هذا هو التحول الذى سينتزعها من ربقة تلك المرأة !.. إنه الفرصة التى لم تطمع فيها ، ولو فى الأحلام .. الفرصة الرائعة التى جعلتها تحس بأنها تعود إلى الحياة !.. غير أن هذا المنظر العائلى المؤثر بعث فى الرومانية أسى ، وتوجساً ، فمضت فى بعض الحديث ببراعة حتى انتهت إلى القول بأنها تغبط (جيما) ، فطالما تاقت هى نفسها إلى أن تسكن العاصمة ، دون أن تفوز بأمنيتها !.. وانزلق (فاجنوتسى) الطيب إلى الشرك ، إذ بادر بقول إنه لا ينتوى التفريق بين صديقتين تتعلق كل منهما بالأخرى إلى هذا الحد ، ومن ثم يأمل أن تكون مدام (كوسيانو) ضيفتهما فى روما بضعة شهور !

وشحبت (جيما) لهذه الكلمات ، فتهالكت فى مقعدها ، أما مدام (كوسيانو) فسارعت تلتقط الفرصة ، معلنة لفورها قبولها الدعوة شاكرة لفاجنوتسى أريحيته .. فقال هذا إنه سعيد إذ يراها تلازم زوجته وتؤنسها ، ومن ثم فجدير به أن يكون الشاكر لها !.. وقالت مدام (كوسيانو) وهى تصطنع التواضع أن لا داعى للشكر فهى إنما تفعل ما تفعله حباً فى (جيما) .. بل إنها أمعنت فى جرأتها فالتفتت نحو ربة البيت وسألتها بصوت يقطر عذوبة : « أليس كذلك يا حبيبتى ؟ » .

وتبينت (جيما) ، فى ألم وغيظ كظيم ، سخرية الحوار الدائر ، واستعرضت فى خيالها حياتها المقبلة فى روما ، وبيتها الجديد الذى

ستدنسه تلك المرأة بوجودها !.. ثم مولد طفلها فى ظل ذلك الجو المقبض الذى تكتنفه أشباح النقمة !.. واستبدت بجيما فجأة غيرة الأم التى تستبق بصيرتها الزمن ، لتستجلى المجهول ، فتصورت احتمال إقدام تلك المرأة على تهديد جديد : ربما بانتزاع الطفل الذى سيولد !.. وفى بحران الخيال المحموم ، رأت (جيما) ابنها — وكأنها فى حلم — بين ذراعى هذه المرأة ، ورأت الوجه النجس المنتزى بالدهن وقد انحنى على وجه الطفل ، بينما هى نفسها — أمه — مبعدة عنه ، لا تقبله إلا خلسة ، أو بإذن من الرومانية !

وطاش لهذه الرؤيا صوابها ، وانبعث منها فى قلبها حنق مضطرم كشرارة مست كومة من حطب يابس ، فما تبقى فى نفسها غير العاطفة البدائية وثورة اللحم التى لا ضابط لها !.. واستقرت عيناها الزائغتان فوق المائدة على سكين طويلة حادة كان زوجها يستخدمها فى قطع الخبز الذى لا يشبع منه نهمه ، فامتدت يدها بغير عجلة إلى تلك السكين وقبضت عليها ، وأدارتها لحظة ووزنتها — كما لو كانت تفحصها — ثم دفعت بكرسيها إلى الوراء ، وانتصبت فى حركة مفاجئة .. وبأسرع من لمح البصر انقضت على مدام (كوسيانو) شاهرة سكينها !

وكانت الرومانية جالسة عند طرف المائدة ، فتفادت الضربة الأولى ، ونهضت وهى تطلق صرخة ثاقبة .. ثم تعثرت .. وأخيراً لاذت وهى تلهث من الخوف والحقد بكرسى (فاجنوتسى) ..

واستطاع هذا بمساعدتها أن ينتزع السكين بسهولة من يد زوجته !.. وكانت (جيا) قد استندت إلى المائدة ، شاحبة كمن بها دوار ، لا تجيب عن أسئلة زوجها القلقة ، وهى تمر بيدها المنفرجة الأصابع على وجهها .. فطوقها زوجها خشية أن يغمى عليها ، ومنحها ذراعه تستند إليها وهو يقودها نحو السلم ، فتركته يفعل دون أن تقاومه ، وقد زاغت نظراتها !

لكن مدام (كوسيانو) كانت قد عانت خوفاً أقوى من أن يتيح لها ضبط أعصابها ، فاشتعل فى أعماقها حقد دفين ضد (جيا) ، لا يقل عن حقد (جيا) عليها ، وراحت تصرخ بعبارات متقطعـة يتردد فيها اسم (فيتونى) !.. وعنـدئذ استعادت (جيا) نوعاً من الحيوية ، فتوقفت وسط السلم الذى كان زوجها يرتقيه معها ، خطوة خطوة ، وردت بصوت مضنى – ولكنه هادئ – إن كل شىء يمكن منذ الساعة أن يروى ، فما عادت تعارض فى ذلك !.. وأجابت الرومانية ، من أسفل ، بصوت يخنقه الغضب ويكسبه حدة ، بأن ذلك هو بالضبط ما سوف تفعله !.. وأضافت إلى ذلك مجموعة من السباب الخشن تكررت فيها كلمة « قاتلة » التى تحشرج بها صوتها وهى تزأر بها فى حقد ملتاث .. وفى النهاية قالت إنها لن تعرف للراحة طعماً ما دامت (جيا) خارج السجن !

وطال هذا الحوار بين (جيا) المتكئة على الدرابزين » ، وبين الرومانية التى كانت تضطرب على الدرجة الأولى من السلم ، بضع

لحظات .. عرف (فاجنوتسى) التعس خلالها ، وهو واقف على السلم بجانب امرأته ، ما كان من أمرها !

* * *

● وكان شحوب (جيا) يتزايد ، والدوار يطوح بها ، فاعتمدت بيديها على « الدرابزين » . وفهم زوجها أن الوقت غير مناسب للوم أو لطلب التفسير والإيضاح ، فأعرض عن السيدة (كوسيانو) – التى كانت فى هياجها قد أخذت تسبه هو أيضاً – وأجبر زوجته ، فى غير عنف ولكن بحزم رفيق ، على أن تصعد إلى حجرتها .. وهناك مددها على السرير وهو يخشى أن يتفاقم حالها ، وقد كان هذا ما حدث بالفعل ، فإنهى إلا دقائق حتى كانت قد توهجت بالحمى ، وترنحت حدقتاها ، وفقدت حركاتها وكلماتها كل ترابط .. ودخلت فى مرحلة الهذيان !.. رأت وحشاً طرياً له مخالب حشرة ، يذهب فيختبئ فى الأركان ، أو تحت الأثاث ، أو يسعى على الأرض بوثبات سريعة ويقفز فوق السرير .. وكانت تشير لزوجها نحوه فى رعب ، وترد أغطيتها على جسمها كما لو كان هناك من يريد انتزاعها منها !.. أو تتخذ هيئة غامضة وهى تنطق ، بلهجة الخطورة ، ببضع كلمات مخبولة .. فكان أن أرسل (فاجنوتسى) فى طلب طبيب ، وجلس فى انتظاره عند وسادة زوجته ..

* * *

● وخلال مرض (جيا) الذى استمر أكثر من أسبوع ، حدثت

لما جميع المضاعفات التى يخشى منها فى مثل حالتها !.. لكن زوجها لم يبرح حجرتها ، بل كان يقضى فيها الليل بأكمله ؛ فاتسع له المجال للتفكير فى هدوء فيما يقع من أحداث .. فإذا شعوره الأول بالدهشة البالغة لخيانة زوجته ، قد أخلى مكانه لشعور غامر بالاستنكار !.. ثم تعمق « الأستاذ » فى تأملاته فى الأيام التالية ، فاسترد قدراً أكبر من طمأنينته .. ولم تكن عبارات مدام (كوسيانو) العاصفة ، وردود (جيما) ، قد أطلعته من الأمر إلا على القليل — باستثناء الواقعة الأساسية — لكنه أدرك أن مما لا طائل تحته ، بل من السخرية المزرية أن يهرع وراء الرومانية ، التى كانت قد نقلت معسكرها فى الحال بعد الالتحام !.. كما أنه آثر ألا يستجوب (جيما) بعد شفائها . وأطال التفكير فيما يجب عليه أن يتخذ من مسلك ، قبل أن يتغلب حبه لزوجته آخر الأمر على خيبة رجائه فيها ، وعلى غضبته .. ورأى أن الصمت بشأن ما وقع هو خير منهج للمستقبل ، واعتبر مغامرة امرأته مع (فيتونى) هفوة شباب ، ينساها هو وجيما فى مدينة أخرى ، وفى جو آخر ، وينتهيان إلى الاعتقاد بأن كل هذا ما وقع يوماً ولا كان !

أما ما بقى من مرارة فى نفسه ، فكان مصدره وجوب التنازل عن الطفل المرغوب ، على الأقل فى الوقت الحاضر !.. لكنه لم يلبث أن جرد فكره من كل حقد ، وما عاد يهتم بغير شفاء زوجته .. فلما استطاعت فى نهاية خمسة عشر يوماً أن تنهض قررا المبادرة بالرحيل .

* * *

• ورحلا ، ذات صباح من شهر يناير ، فى ساعة مبكرة ، وكان الفجر ينشر ضباباً مشبعاً برطوبة الليـل ، والبرد لاذعاً .. ولم تكن المصابيح قد أطفئت بعد فى شارع « الكورسو » الموحش ..

وعندما هبط الأوتوكار الذى كان يحملهما إلى طريق الخندق ، استطاعت (جيما) أن ترى لآخر مرة المدينة الغارقة فى السواد ، تلمع فى قممها بضعة أضـواء واهنة ، تحت سماء انتثرت فيها السحب .. وكانت (جيما) تفكر : « بعد نحو ساعة ستصحو (مدام كوسيانو) من نومها ، بشرائط شعرها الورقية ، ووجهها الملطخ بالدهان ، وستذهب فتصنع لنفسها فنجاناً من القهوة فى مطبخها ، وستبدأ أى أيضاً يومها ، وسيرفع محل الحلوى فى « الكورسو » ستاره الحديدى ، بضجته المعتادة ، وستدق أجراس الكنائس للقداس الأول ، أما أنا فلن أرى تلك المرأة (كوسيانو) بعد الآن ، ولن أسكن بعد فى الزقاق ، ولن أسمع الأجراس ! » .

وأشاحت بنظراتها عن المدينة وهى غارقة فى هذه الأفكار ، وكان « الأوتوكار » قد انطلق فى السهل ، فى الطريق إلى المحطة ، التى لاحت مبانيها الصفراء من خلال صفوف من الأشجار .. كما لاح أيضاً ، وراء حاجز الدخان الأبيض لقطار يتحرك ، مغادراً تلك المدينة الصغيرة .. من مدن الأقاليم !

[تمت القصة]



عزيزى القارئ ..

فى هذا الكتاب الذى بين يديك ، يسرنى أن أقدم لك ترجمة روايتين من أشهر أعمال كاتب إيطاليا المعاصر الأشهر « ألبرتو مورافيا » :

الرواية الأولى هى « أجوستينو » أو « الخطيئة الأولى » ، التى اعتبرت أحسن رواية إيطالية فى عام ١٩٤٥ ، وما زالت تعد إلى اليوم من أكمل روايات مورافيا وأعظم أعماله الأدبية نضوجاً ، إذ يرى النقاد أنها أروع رواية من روايات الأدب العالمى الحديث تناولت - بصراحة كاملة - ظواهر التطور ويقظة الرجولة فى نفس الفتى « المراهق » الذى أطلق عليه المؤلف إسم « أجوستينو » AGOSTINO .. وقد كتبها مورافيا عام ١٩٤٢ واستغرقت منه كتابتها أكثر من عام !

أما الرواية الثانية التى يضمها هذا الكتاب الذى بين يديك ، فهى رواية (فتاة من الأقاليم) LA PROVINCIALE التى كتبها مورافيا عام ١٩٣٧ ، وهى من لون مغاير تماما للأولى : فبينما تعتمد « أجوستينو » على « التحليل النفسى » أولا وأخيرا ، تعتمد الثانية على الحركة والحوادث المتلاحقة ، فبطلتها فتاة ذات حيوية وطموح ، تضيق آمالها بالحياة الراكدة الرتيبة التى تفرضها عليها بيئة « الأقاليم » ، وتتمرد أحلامها على قيود الفقر والظروف المتواضعة التى تحيط بها ، فتحلم بالثراء ، والزواج من شاب مترف ، والانتقال إلى العاصمة .. و .. و .. إلى آخر قائمة أحلامها !

فإلى أين تقودها هذه الآمال والأحلام ؟ هل تطير بها إلى سماء الخيال ، فتنعم بما طالما تاقت إليه ؟ أم تهوى بها من حالق ، إلى قاع الحقيقة ، فتسقط مهشمة العظام ، محطمة النفس ؟

هذا ما نعرفه خلال قراءتنا لهذه الرواية الممتعة ، التى جسدتها على شاشة السينما النجمة الإيطالية العالمية « جينا لولو بريجيدا » .

والله ولى التوفيق

حلمى مراد



١٥٠ قرشا

فتاة من الأقاليم